

كُرْسِيُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعِلْمُهُ
Chair of Qur'anic Sciences



الإصدار الثالثون

صَمِيهِ الْفَصْلِ وَوِطْأَيْهِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

أَسْرَارٌ وَنَاشِئَاتٌ بِلَاغِيَّةٌ

نَالِيفُ

د. عَبْدُ الرَّزَّاقِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ

أَسَازُ بَقْفِيرُ وَعُمَاثُمُ بَقْرَانُ لِنَارِكُ
بِمَا سَقَا الْإِسَامُ بِمُتَدَرِّثُنُ شَمُورُ الْإِسْمَاكِيَّةُ

فِرْعُ جِبْرِفِي

كُرْسِيُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعِلْمُهُ

جَامِعَةُ الْمَلِكِ شَيْخُودُ

مُخَفَضُ السَّبْعِرُ

٢ كرسى القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أحمد، عبد الرزاق حسين
ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم: أسرار وتأملات
بلاغية. / عبد الرزاق حسين أحمد- الرياض، ١٤٣٦ هـ

١٢٨ ص؛ ٢٠×١٤ سم

ردمك: ٩ - ٤ - ٩٠٦٢٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - النحو ٢ - القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

١٤٣٦/٧٧٩٣

ديوي ٢٢٤,٢

جَمِيعُ مَقُورٍ يُطْبَعُ بِحَفْظَةٍ

لِكِتَابِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَأْوِيلِهِ

جَامِعَةُ الْمَلِكِ سَعُودٍ

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يَهْتَمُّ الْكُرْسِيُّ بِنَشْرِ الْبُحُوثِ اللَّمَّازَةِ وَالْمَجَادَّةِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعُلُومِهِ حَقِيقًا وَدِرَاسَةً

جَامِعَةُ الْمَلِكِ سَعُودٍ - كَلْبَةُ الرَّبِيعَةِ

هاتف: ٠٠٩٦٦١٤٦٧٤٧٤٤ - ص.ب. الرياض ٢٤٢١٩٩

بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair

تويتر: quranchair

مَتَافِذُ النَّبِيِّ

الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٥٧٦١٣٧٧ / ٠١٢ - المدينة النبوية: ٨٤٦٧٩٩٩ / ٠١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ كَرِسِيِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

المقصودُ بضمير الفصل في القرآن الكريم: هو صيغة ضمير منفصل مرفوع يتوسط بين المبتدأ والخبر؛ مثل (هم) في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقد ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة جداً أحصاها الدارسون وتوقفوا عندها، ووقع بينهم اختلاف كثير في مفهوم ضمير الفصل ودلالاته البلاغية وغير ذلك من المسائل المتعلقة به.

وقد قام الباحث الكريم د. عبد الرزاق حسين أحمد بدراسة طرفٍ من موضوع (ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم وأساره البلاغية) في هذا البحث، وحاول استقصاء أقوال المفسرين وأهل البلاغة في دلالات هذا الضمير في الآيات القرآنية، مع بيان أثر السياق في اختيار الدلالة المناسبة. ولا شك أنه يزيد ثراء هذا الموضوع

وعمقهُ مع زيادة تمكُّنِ الباحث فيه من اللغة العربية
وأسرارها ودقائقها، وهو ميدانٌ واسع للباحثين المتمكِّين
من أدواته.

وقد رَغِبَ كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة
الملك سعود في نشر هذا البحث ضمن منشوراته؛ لإفادة
الباحثين، ولإثراء المكتبة القرآنية، وسدًا للشغرة التي
يعالجها هذا البحث ضمن مسائل علوم القرآن والبلاغة
والعربية. ونرجو أن يتقبله الله من المؤلف والناشر بقبول
حسن.

أ.د. عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُعَاذَةَ الشَّهْرِي
المُرْتَفِعُ عَلَى النَّزِي



الملخص

يُعنى هذا البحث بضمير الفصل وأثره في إبراز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وهو بعنوان: «ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم: أسرار وتأملات بلاغية».

ويشتمل البحث - بعد المقدمة - على فصلين:

الفصل الأول: مقدمات موجزة لأبرز مسائل ضمير الفصل، وهي مسائل كثر فيها الجدل والنقاش عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين: كتسميات هذا الضمير، وهل هو اسم أو حرف؟ وإن كان اسمًا فهل له محل من الإعراب أو لا؟ وما شروطه؟

وهذا الفصل توطئة للفصل الثاني لنكون على إمام ودراية بالموضوع الذي نتناوله بالدراسة.

وأما الفصل الثاني: فقد تتبّع البحث الوظائف البلاغية لضمير الفصل في القرآن الكريم، وعرض ثلاث وظائف:

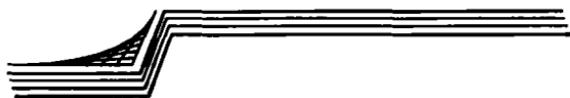
أولها: وظيفة التوكيد والتقوية، وآثرنا مزيدًا من التحليل لآيات من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، برز فيها أسلوب التوكيد بضمير الفصل في موطن، ولم يؤكّد في موطن آخر شبيه به.

وثانيها: وظيفة القصر والحصر والاختصاص.

وثالثها: وظيفة التمييز بين الخبر والتابع.

وانكشف لنا من خلال عرض أمثلة تلك الوظائف معانٍ وكُنُوزٌ مستورة تحت تعبيرات هذا القرآن المعجز. وأخيرًا؛ ختم البحث بخاتمة فيها جملة من النتائج.





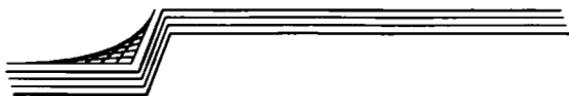
تقديم
أ.د. أحمد محمد الخراط
مفظة اللد نقالی

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله
وصحبه؛ وبعد:

فقد اطلعت على البحث القيم الذي أعده فضيلة
الدكتور عبد الرزاق حسين أحمد بعنوان: «ضمير الفصل
وظائفه في القرآن الكريم، أسرار وتأملات بلاغية»، فألقيته
بحثاً علمياً مؤصلاً، عالج فيه المصطلح في استعمال
النحاة والبلاغيين، واختار فيه تحديداً مناسباً، كما أشار
إلى وظيفة هذا الضمير وأهميته ودوره في السياق القرآني
لإبراز المعاني المنشودة، وعرج على المتشابه اللفظي
وأسواره البديعة ومواطن الإعجاز البلاغي، وقد أفاد
الباحث من التراث العلمي في الجوانب النحوية والبلاغية،
وكتبَ البحثَ وفق الأصول المعتمدة، ووثق معلوماته
ونتائجه.

أَسْأَلُ اللَّهَ لَهُ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
العالمين .

أ.د. أَجْمَدُ مُحَمَّدُ الْخِرَاطُ
أستاذ اللغويات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً
والمستشار في إدارة الشؤون العلمية بمجمع الملك فهد
لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة



المُقَدِّمَة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علَّمه البيان،
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الضمائر في القرآن الكريم وفي اللغة
العربية من المواضيع التي حظيت بنوع من العناية
في كتب النحو، وكتب البلاغة، والتفاسير، وعلوم
القرآن.

ولا يكاد يخلو كتاب من تلك الكتب المتنوعة،
والفنون المختلفة من الحديث عن الضمائر: إما بياناً
لأقسامها وتفرعاتها، وإما شرحاً وتحليلاً لمرجعها.

إلا أن هناك نوعاً من أنواع الضمائر لم يَحْظَ بتلك
العناية، ولم تُبرز أسراره ودلالاته البلاغية، وهو الضمير
المسمى بـ«ضمير الفصل».

■ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يكتسب هذا الموضوع أهميته الكبرى من ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم، والكشف عن أسراره البلاغية، ونكته البيانية عبر هذا الضمير الذي يؤدي دلالاتٍ متنوعة في السياقات القرآنية.

وثمة أسباب دعني لاختياره، من أبرزها:

أولاً: سبق أن كتبتُ دراسة علمية في كشف الأسرار البلاغية للإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم، بعنوان: الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم: مفهومه، أغراضه، عناية المفسرين به^(١).

وهذا البحث يأتي استكمالاً لذلك المشروع، وليكشف جوانب جديدة من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم.

ثانياً: كثرة ورود ضمير الفصل في القرآن الكريم بصيغ متنوعة (متكلم - مخاطب - غائب)، وقد أحصى

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد التاسع، جمادى الآخرة ١٤٣١هـ - يونيو ٢٠١٠م، ثم طبع ضمن إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت عام (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)، ثم طبع أيضاً ضمن سلسلة إصدارات كرسى القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود عام ١٤٣٦هـ.

الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة رحمته في كتابه الفذ «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» أكثر من مئتين وعشرين ضميراً من ضمائر الفصل من أول القرآن إلى نهايته^(١).

إنَّ ورود هذا الكم الهائل من ضمائر الفصل أمرٌ يسترعي انتباه الباحثين، ويدعوهم إلى التأمل وإدامة النظر للوقوف على ما تُوحى به تلك الضمائر من دلالات، وما أروع وأجمل التدبُّر في أسرار هذا الكتاب المعجز، والعيش في رحابه، فتلك أسعد لحظات يعيشها المسلم في هذه الحياة، ورحم الله ابن القيم (ت ٧٥١هـ)؛ فمن دُرِّ كلامه قوله: «... فما أشدَّها من حسرة، وما أعظمها من غبنة، على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم خرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه!»^(٢).

ثالثاً: تأديته معاني دلالية متنوعة في السياقات القرآنية، وتلك من الخصائص التي يختص بها هذا الضمير عن بقية الضمائر.

رابعاً: ما وجدته من إشارات تشجيعية لبعض

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة (١/١٣٢ - ١٤٩ القسم الثالث).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١/٣٣٨).

المفسرين والبلاغيين قديمًا وحديثًا حول أهمية هذا الموضوع، ومن هؤلاء:

• شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، فقد قال في معرض حديثه عن بلاغة القصر في ضمير الفصل: «وهذا فنٌ عجيب الشأن، وله مكان من الفخامة والنبل، وهو من سحر البيان الذي تقصّر العبارة عن تأدية حقه، والمعول فيه على مراجعة النفس واستقصاء التأمل»^(١).

• ومنهم أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) الذي ذكر في تفسيره «البحر المحيط»: أنه ألف رسالة مستقلة في أحكام ضمير الفصل^(٢).

• ويقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في معرض حديثه عن مجيء ضمير الفصل من أجل التأكيد: «إن قيل في هذا الموضوع: إن الضمائر مذكورة في كتب النحو، فأى حاجة إلى ذكرها هاهنا، ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته؟ قلت: إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة، وأولئك لا يتعرضون إليه، وإنما يذكرون عدد الضمائر، وأن

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ص ١٨٣).

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٤٤).

المنفصل منه كذا، والمتصل كذا، ولا يتجاوزون ذلك،
وأما أنا فإنني أوردت في هذا النوع أمرًا خارجًا عن الأمر
النحوي... وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض
المبالغة، وهو من أسرار علم البيان»^(١).

وقال أيضًا: «وهذا موضع من علم البيان تتكاثر
محاسنه؛ فاغرفه»^(٢).

• وللدكتور محمد أبو موسى كلام نفيس في
أهمية إبراز بلاغة ضمير الفصل يقول فيها: «نبه العلماء
إلى مواقع في ضمير الفصل اقتضتها دواعٍ خفيةٌ يجد لها
الدارس المتذوق فضلًا ومتاعًا»^(٣).

• وجاء في الاقتراحات التي قدّمها الدكتور ملفي بن
ناعم الصاعدي في بحثه الموسوم بـ«الضمائر المحتملة في
القرآن الكريم» قوله: «إنَّ الضمائر في القرآن الكريم
تحتاج إلى خدمة كبيرة، وخصوصًا من حيث إبراز
قواعدها، ودراستها دراسة وافية مدعمةً بالأمثلة...»^(٤).

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/٢٠٣).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٠٩).

(٣) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى (ص ٩٣).

(٤) الضمائر المحتملة في القرآن الكريم للدكتور ملفي الصاعدي =

■ أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدة أهداف، منها:

١ - إظهار الصلة القوية بين القرآن الكريم واللغة العربية الموصوفة بالبيان في قوله تعالى: ﴿يَلْسَانِي عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

ولا سبيل لنا إلى معرفة حقائق إعجازه والوقوف على مقاصده إلا عن طريق تلك اللغة، فمن اغترب منها اغترب عن حلاوة القرآن.

٢ - إبراز وجه من وجوه البلاغة التطبيقية في القرآن الكريم من خلال عرض وظائف ضمير الفصل، والكشف عن الأسرار البلاغية والنكت البيانية لأمثلة تلك الوظائف.

٣ - سدُّ ثغرة موجودة في المكتبة القرآنية، فليس هناك - حسب علمي - دراسة علمية تناولت بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم، ولعل نشر هذه الدراسة يستثير قريحة الباحثين والمتخصصين للمزيد من الاهتمام بهذا الموضوع.

= (ص ١٠٠)، بحث محمَّد منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.

■ منهج الدراسة:

إنَّ المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة يتلخص في الآتي:

- ١ - قمت بجمع المادة العلمية واستخراجها من مظانها المتنوعة من كتب النحو، وكتب البلاغة، وعلوم القرآن، والتفاسير، ومن ثمَّ تنظيمها وترتيبها وفق الخطة الآتية:
- ٢ - وثقت نقول أهل العلم من مظانها الأصلية ومراجعتها المعتمدة قدر المستطاع.
- ٣ - اقتصر في الجانب البلاغي على إبراز بلاغة ضمير الفصل في ظل السياق الدلالي للآيات التي هي مدار البحث؛ مستعينًا على ذلك بأقوال المفسرين والبلاغيين ومؤلفي كتب توجيه المتشابه اللفظي.
- ٤ - اقتصر في المسائل النحوية على ما يخدم هذه الدراسة، ويتطلبها الأمر لتخرج في صورة سوية متكاملة، أما غير ذلك فلم أتطرق إليه لكي لا تخرج الدراسة عن إطارها التخصصي.
- ٥ - ناقشت في المسائل التي تستدعي المناقشة، ورَّجحت ما أراه راجعًا مع ذكر وجه الترجيح.

٦ - لم أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في هذه الدراسة خشية الإطالة، ولشهرتهم وغناهم عن التعريف، وإنما ذكرت سبني وقياتهم عند أول ورود لهم.

■ خطة الدراسة:

اشتمل البحث على مقدمة وفصلين وخاتمة.

● أما المقدمة: فقد تناولت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة الدراسة، والدراسات السابقة في الموضوع.

وأما الفصلان فقد تمّ تناولهما على النحو التالي:

● الفصل الأول: مقدمات موجزة لأبرز مسائل

ضمير الفصل، وفيه خمسة

مباحث:

المبحث الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لضمير

الفصل.

المبحث الثاني: تسميات ضمير الفصل عند اللغويين

والبلاغيين والمفسرين.

المبحث الثالث: ضمير الفصل بين الاسمية والحرف.

المبحث الرابع : ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه .

المبحث الخامس : شروط ضمير الفصل .

• الفصل الثاني : وظائف ضمير الفصل في القرآن

الكريم ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : وظيفة التوكيد والتقوية .

المبحث الثاني : وظيفة القصر والحصر والاختصاص .

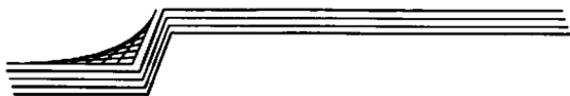
المبحث الثالث :



• الخاتمة : وفيها أبرز نتائج هذه الدراسة .

والله أسأل أن يبارك في هذا الجهد المتواضع ، وأن يسدد الخُطَا ، وأملي كبير أن أكون قد وُفِّقت في الإسهام في خدمة كتابه ، والحمد لله أوَّلاً وآخراً ، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

د. عبد الرزاق حسين أحمد



الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ

في حدود اطلاع الباحث لم يُعثر على دراسة علمية مستقلة تناولت بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم، ولكن ثمة مؤلفات قديمة ودراسات معاصرة لها علاقة بموضوع بحثنا؛ إذ إنَّ ضمير الفصل ما هو إلا نوع من أنواع الضمائر.

وقد كانت عناية العلماء بموضوع الضمائر قديمة؛ حيث ذكر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) والسيوطي (ت ٩١١هـ): أن لابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) مصنفاً في الضمائر في مجلدين^(١).

كما ذكر ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) في الفهرست كتاباً لأبي عمر حفص الدوري (ت ٢٤٦هـ) في الضمير ومرجهه^(٢).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٣/٤)، والإنقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٥٩٧).

(٢) انظر: الفهرست لابن النديم (ص ٤٠).

وممن ألف في ضمائر القرآن: أحمد بن جعفر
الدينوري (ت ٢٨٩هـ)، وشمس الدين الكرمانى
(ت ٧٨٦هـ)^(١).

ولأبى حيان الأندلسى رسالة مستقلة فى أحكام ضمير
الفصل، يقول فى تفسيره «البحر المحيط»: «وقد جمعت
أحكام الفصل مجردة من غير دلائل فى نحو من ست
ورقات»^(٢).

وقال أيضاً: «وقد تقدم الكلام فى الفصل وفائدته،
وهو من المسائل التى جمعت فيها الكلام فى نحو من سبع
أوراق أحكاماً دون استدلال»^(٣).

وهذه المؤلفات كلها مخطوطات مفقودة لم تر النور
بعد.

وأما الدراسات المعاصرة فقد اتخذت ثلاثة مسالك
فى تناولها لموضوع الضمائر، وهى على النحو التالى:

(١) انظر: فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم (٩٧٠/٢)، إصدار
مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف
الشرىف.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان (٤٤/١).

(٣) المصدر السابق (٣٨٨/١).

المسلك الأول: دراسات تناولت أحكام الضمائر وتقسيماته وقواعده بصفة عامة، ويغلب عليها الطابع النحوي، منها:

١ - الضمائر في اللغة العربية، للدكتور محمد عبد الله جبر^(١).

٢ - الضمائر في اللغة العربية، للباحث محمد حفيظ^(٢).

المسلك الثاني: دراسات تُعنى بمرجع الضمير، واحتمال تعدده وأثر ذلك في المعنى، ومن ذلك:

١ - مرجع الضمير في القرآن الكريم: مواضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب، للدكتور محمد حسنين صَبْرَة^(٣).

٢ - الضمائر المُحتمَلة في القرآن الكريم، للدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي^(٤).

(١) طبعته دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٢) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بمكناس، المغرب، ١٩٩٣م.

(٣) رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم، القاهرة، ونشرتها دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٤) بحث محكَّم منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.

المسلك الثالث: دراسات بلاغية، وأبرزها: دراسة الدكتور عويض بن حمود العطوي المعنونة بـ«الضمير المنفصل في النظم القرآني»^(١).

وأحسب أنه لا تخفى على أهل الاختصاص الفروق بين الضمير المنفصل وضمير الفصل، فالضمير المنفصل أعمُّ وأشمل من ضمير الفصل، كما أنَّ لكل منهما وظائفه وخصائصه.



(١) رسالة ماجستير في البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤١٦هـ، ولم تنشر بعد.

الفصل الأول

مقدمات موجزة

لأبرز مسائل ضمير الفصل

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

المفهوم اللغوي والاصطلاحي

تضمير الفصل

المطلب الأول

التعريف اللغوي لضمير الفصل

الضمير في اللغة: هو الإخفاء، يقال: أضمُر الشيء: أخفاه، ويقال: أضمُر في نفسه شيئًا؛ أي: عزم عليه بقلبه^(١).

ويُعرف عند أهل الكوفة بالكناية، وهي تسمية يلحظ فيها أيضًا معنى الخفاء والستر^(٢).

وأما الفصل فهو: مصدر للفعل «فَصَلَ»، يقال: فَصَلَ بينهما يَفْصِلُ فَصْلًا، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِينَ وَالنَّاصِرِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]؛ أي: يقضي وَيَحْكُم^(٣).

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٧١)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ضمير) (ص: ٥٥١).

(٢) ينظر: مصطلحات النحو الكوفي دراستها وتحديد مدلولاتها للدكتور عبد الله الخثران (ص: ٦١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٤/٣٣٧).

المطلب الثاني

التعريف الاصطلاحي لضمير الفصل

ضمير الفصل في المفهوم الاصطلاحي: هو صيغة ضمير منفصل مرفوع يتوسط بين المبتدأ والخبر^(١)، نحو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، أو ما أصله المبتدأ والخبر كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَايْنَ﴾ [الصفات: ٧٧].

والمتمامل في التعريف يجد أننا اخترنا لفظ: صيغة ضمير منفصل، ولم نقل: ضمير منفصل؛ وذلك للإشارة

(١) انظر: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني)، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (٢/١٤٣ - ١٤٤)، وتعليق الفرائد على تسهيل الفوائد للدماميني (٢/١٢٩)، والإنتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٦٠١)، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة (١/١٣٢ القسم الثالث).

إلى الخلاف الواقع في اسميته أو حرفيته كما سيأتي .
 قال الرضي (ت ٦٨٦هـ) في شرحه لكافية ابن الحاجب
 (ت ٦٤٦هـ): «ويتوسط بين المبتدأ والخبر قبل العوامل
 وبعدها صيغة مرفوع منفصل مطابق للمبتدأ يُسَمَّى
 فصلاً»^(١).



(١) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني)،
 وانظر أيضاً: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان
 الأندلسي (١/٤٨٩).

المَبْحَثُ الثَّانِي

تسميات ضمير الفصل عند اللغويين
والبلاغيين والمفسرين

المبحث الثاني

تسميات ضمير الفصل عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين

إنَّ أول من أطلق على هذا الضمير فصلاً هو:
الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) أستاذ سيبويه^(١)، وتبعه
سيبويه (ت ١٨٠هـ) في ذلك حيث عقد باباً بعنوان: «هذا
باب ما يكون فيه هُوَ وَأَنْتَ وَأَنَا وَنَحْنُ وَأَخَوَاتِهِنَّ
فصلاً»^(٢)، ثم عرض لبعض الأمثلة التي جاءت في القرآن
الكريم^(٣).

وتسميته بضمير الفصل مصطلح البصريين^(٤)، وأما

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه (٢/٣٨٩).

(٢) المصدر السابق مع الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق (٢/٣٩٠ - ٣٩٢).

(٤) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين
والكوفيين لابن الأنباري (٢/٧٠٧)، وشرح المفصل لابن يعيش
(٣/١٠٩)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٦٩) القسم
الثاني، والمساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل (١/١١٩)، =

الكوفيون فسّموه عمادًا ودعامة^(١).

يقول ابن مالك (ت ٦٧٢هـ): «من المضمّرات المسمّى عند البصريين فصلًا، وعند الكوفيين عمادًا»^(٢).

وقال أبو حيان: «والفصل هو صيغة ضمير منفصل مرفوع، ويسميه الفراء وأكثر الكوفيين عمادًا، وبعض الكوفيين يسميه دعامة، ويسميه المَدَنِيُّونَ صفة»^(٣).

وجاء في كتاب «مغني اللبيب، عن كتب الأعراب» لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) باب بعنوان: «شرح حال المسمى فصلًا وعمادًا»^(٤).

كما استعمل الطبري (ت ٣١٠هـ) والقرطبي (ت ٦٧١هـ)

= والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي (١٤٤/٢).

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١/٢٤٨) (٢/٢٥٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (٣/١١٠)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٧٠ القسم الثاني)، والمساعد على تسهيل الفوائد (١/١١٩)، والطراز (٢/١٤٤).

(٢) المساعد على تسهيل الفوائد (١/١١٩).

(٣) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان (١/٤٨٩).

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام (٢/٤٩٣)، وانظر أيضًا: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين لابن الأنباري (٢/٧٠٦ - ٧٠٧).

في تفسيريهما مصطلح «العماد»، منفردًا حينًا، ومقترنًا بالمصطلح البصري حينًا آخر^(١).

ويرى أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) أن هذا الضمير يُسمى عند البصريين «الفاصلة»؛ حيث قال في توجيه قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]: «يجوز أن يكون «هم» زيادة يسميها البصريون فاصلة، ويسميها الكوفيون عمادًا، و«المفلحون» خبر أولئك»^(٢).

وهذا هو اختيار مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) كما هو مذكور في كتابه «مشكل إعراب القرآن»^(٣).

ومن التسميات التي ذكرت لهذا الضمير ما ذكره الأخفش (ت ٢١٥هـ) بأنه صلة وزائدة، يقول عند شرحه لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]: «فنصب ﴿الْحَقُّ﴾ لأن «هو» جعلت هاهنا صلة في الكلام زائدة توكيدًا كزيادة «ما»^(٤).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢/٢١٤)، (٦/٢٦٧)، (١١/١٤٦ - ١٤٧)،

وتفسير القرطبي (١/٢٧٧)، (٢/٢٤١).

(٢) إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (١/١٨٤).

(٣) ينظر: (٢/٢٠ - ٢١).

(٤) معاني القرآن للأخفش (٢/٥٤٣).

والم تأمل في كلام أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) وأبي العباس المُبرّد (ت ٢٨٥هـ) يجد أنهما يميلان إلى تسمية هذا الضمير بالصلة والزائد^(١).

ومن التسميات أيضًا: «الرابطة»، وهي تسمية استخدمها أهل المنطق كما ذكرها بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ)^(٢).

ويرى المستشرق (برجشتراسر) أن استخدام ضمير الفصل للربط بين المبتدأ والخبر وسيلة قديمة شائعة في اللغات السامية، وربما تكون هذه الوسيلة أقدم من وسيلة الربط بأفعال الكينونة (كان وما بمعناها)^(٣).

ولكن كلامه ليس بجديد، فقد نبّه على هذا الملحظ قبله الأشموني (ت ٩٢٩هـ) في شرحه على ألفية ابن مالك^(٤).

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/٢٧٤)، والمقتضب للمبرد (١٠٣/٤).

(٢) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (١/٣٣٢).

(٣) ينظر: التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر، ترجمة رمضان عبد التواب (ص ١٣٦).

(٤) انظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/٢٥٥).

ويضيف عباس حسن إلى التسميات السابقة لضمير الفصل اسماً آخر، وهو تسميته «حرف الفصل»، «ولا يحسن تسميته «ضمير الفصل» إلا مجازاً؛ بمراعاة شكله وصورته الحالية»^(١).

* سبب تسميته فصلاً عند البصريين:

سَمِيَ البصريون هذا الضمير فصلاً؛ لأنه يرفع الإبهام ويُزيل اللبس، فهو يوضح كون ما بعده خبراً لما قبله، لا تابعاً.

والتعليل بلفظ «التابع» أولى من تعليل بعضهم: سُمي فصلاً لكونه فَصَلَ بين الخبر والنعته^(٢).

يقول ابن هشام: «وَذَكَرُ التَّابِعِ أَوْلَى مِنْ ذَكَرِ أَكْثَرِهِمُ الصِّفَةِ؛ لَوْ قُوعِ الْفَصْلِ فِي نَحْوِ ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ والضمائر لا توصف»^(٣).

ويرى ابن مالك أنه سُمِّي فصلاً للفصل به بين شيئين

(١) النحو الوافي لعباس حسن (١/٢٧٤ - ٢٤٨).

(٢) ينظر: الإنصاف لابن الأنباري (٢/٧٠٧)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني).

(٣) مغني اللبيب (٢/٤٩٦).

لا يستغني أحدهما عن الآخر^(١).

ويبدو لي - والله أعلم - أن إطلاق التعليل بأنه يفصل بين الخبر والتابع فيه نظر؛ لأنه إذا وقع ضمير الفصل بين اسم الناسخ وخبره زال الالتباس بين الخبر والتابع، سواء كان الناسخ حرفاً نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، أو كان فعلاً نحو قوله تعالى: ﴿كُنْتَ أَتَى الرَّقِيبِ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، فلو كان ما بعد الضمير تابعاً لكان لفظ «الفائزون» منصوباً، ولكن لما كان مرفوعاً تعين الإخبار سواء كان للضمير أو للناسخ.

وهكذا فإن نصب ﴿الرَّقِيبِ﴾ يعني: الإخبار عن الفعل ومنع الإخبار عن الضمير.

فالتعليل المذكور ينطبق عندما يقع ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر فحسب.

يقول ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) في معرض اعتراضه على هذا الإطلاق: «فإن قيل: إذا كان الغرض بالفصل إنما هو الفرق بين النعت والخبر؛ فما باله جاء فيما لا لبس فيه

(١) ينظر: شرح التسهيل (١/١٨٦).

نحو قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]،
و﴿إِنْ تَرَيْنَا أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]؟ ولا لبس
في ذلك؛ لأنَّ المضمرات لا توصف^(١).

* سبب تسميته عمادًا أو دعامة عند الكوفيين:

وأما تسمية الكوفيين لهذا الضمير بالعماد؛ فلأنه
يُعتمد عليه في الوصول إلى الفائدة، وتأدية المعنى، فهو
كالعماد في البيت الحافظ للسقف من السقوط^(٢).

وتسميته دعامةً، «لأنه يدعم به الكلام؛ أي: يقوى
به ويؤكد، والتأكيد من فوائد مجيئه»^(٣).

وكان هؤلاء نظروا إلى بعض وظائفه وفوائده ودوره
المعنوي في الكلام كما سيأتي، فسَمَّوه دعامةً لذلك.

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أنَّ الفراء
(ت ٢٠٧هـ) قد أطلق مصطلح «العماد» على ضمير الفصل
وعلى ضمير الشأن أيضاً^(٤)؛ ذلك أنَّ مفهوم «العماد» عنده

(١) شرح المفصل لابن يعيش (١١١/٣).

(٢) ينظر: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١٧٠/١ القسم الثاني)،
ومغني اللبيب (٤٩٦/٢)، والمساعد على تسهيل الفوائد (١١٩/١).

(٣) مع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي (٦٨/١).

(٤) ضمير الشأن: هو الضمير الذي لم يتقدمه في الذكر ما يعود عليه، =

أوسع من المفهوم الذي يقصر عليه أغلب الكوفيين - وهو التمييز بين الخبر والتابع - ففي بيانه معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] يقول الفراء: «الهاء عماد توقى بها «إن»، ويجوز مكانها «إنه»، وكذلك هي قراءة عبد الله»^(١).

• الراجع من التسميات:

رجح كثير من أهل العلم اصطلاح البصريين، وهو التسمية بالفصل؛ ذلك أن استعمال المصطلح السائد المشهور أولى من العدول إلى مصطلحات أخرى لا تُعطي المعنى الدقيق للكلمة.

يقول ابن الحاجب: «وتسمية أهل البصرة له فصلاً أقرب إلى الاصطلاح في أكثر الألفاظ، ولما كان المعنى في هذه الألفاظ الفصل، كان تسميتها فصلاً أولى من تسمية الكوفيين لها عماداً...»^(٢).

= ويقال له أيضاً: ضمير القصة، والضمير المجهول كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

انظر: شرح المفصل (١١٤/٣)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١٧٨/١ القسم الثاني).

(١) معاني القرآن للفراء (٢/٢٨٨).

(٢) الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب (١/٤٧١).

والكوفيون كما يقرره ابن الحاجب سمّوه باسم ما
يلازمه ويؤدي إلى معناه؛ ومن هنا كانت تسمية البصريين
أظهر.

أما الدماميني (ت ٨٢٧هـ) فيعلل لترجيحه بأن التسمية
بالفصل أخص، وإذا كان الفصل أخص، فإن تسمية
البصريين أولى لهذه العلة؛ لأنّ الأخص يكون مشتقاً
على الأعم^(١).



(١) تعليق الفوائد على تسهيل الفوائد للدماميني (١٢٨/٢) بتصرف.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

ضمير الفصل بين الاسمية والحرف

لِلْبَحْثِ التَّالِي

ضمير الفصل بين الاسمية والحرف

مما هو معلوم باتفاق أهل العلم: أن هذه الصيغة الدالة على التكلم نحو: أنا، أو مخاطب نحو: أنت، أو غائب نحو: هو - من الضمائر، ولكن وقع الاختلاف عندما نقلت هذه الضمائر من وظيفتها في الابتداء إلى وظيفة أخرى وهي «الفصل»، فهل هي باقية على أصلها فتكون من الأسماء؟ أو أن هذا الأصل قد تغير وصارت من الحروف؟ هذا ما سنتناوله في السطور التالية:

انقسم أهل العلم حول هذه المسألة إلى فريقين، ولكل فريق رأيه وحججه:

الفريق الأول: يرى أن هذه الضمائر باقية على اسميتها لدالاتها على مسمى، وهو قولٌ منسوبٌ للخليل بن أحمد كما ذكره غير واحد من العلماء^(١).

(١) ينظر: ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي (١/٤٨٩)، ومغني =

الفريق الثاني: ذهب إلى القول بحرفية هذه الضمائر، وهو قول جمهور النحويين^(١)، فهم يرون أن هذه الضمائر جاءت لمعنى في غيرها، وهو الفصل بين ما هو خبر، وما هو تابع، فاشتدَّ شبهها بالحرف، يقول الرضي معللاً خلوص هذه الضمائر للحرفية مثل كاف الخطاب نحو قولك: ذلك، وأولئك: «لما كان الغرض المهم من الإتيان بالفصل ما ذكرنا؛ أي: دفع التباس الخبر الذي بعده بالوصف، وهذا هو معنى الحرف؛ أعني إفادة المعنى في غيره، صار حرفاً وانخلع عنه لباس الاسمية، فلزم صيغة معينة؛ أي: صيغة الضمير المرفوع»^(٢).

ومنشأ هذا الاختلاف بين الفريقين يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: اختلافهم في محل هذه الضمائر، ألهما محلٌّ من الإعراب أم لا؟

= اللبيب (٢/٤٩٧)، والمساعد على تسهيل الفوائد (١/١٢٠).
 (١) ينظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك (١/٢٤٤ - ٢٤٥)، ووصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ص١٢٨)، وارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي (١/٤٨٩)، والجنى الداني في حروف المعاني للمراي (ص٣٥٠ - ٣٥١)، ومعجم الهوامع (١/٦٨).
 (٢) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/١٧٤ القسم الثاني).

الأمر الثاني: اختلافهم في الوظيفة الحقيقية لهذا الضمير.

• القول الراجح:

الراجح والأقوى - في نظري - : هو اعتبار ضمير الفصل حرفاً لا يعمل شيئاً، ولا يؤثر في غيره تأثيراً إعرابياً، ولكننا نجزم أنّ له فوائد ووظائف اقتضت وجوده كما سنبينه في الفصل الثاني مع الأمثلة التطبيقية.

يقول ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) في ترجيحه لهذا القول: «ومن النحويين من زعم أنها أسماء، ولها موضع من الإعراب، وذلك فاسد، والصحيح: أنها حروف؛ لأن أسماء لا موضع لها من الإعراب لم توجد في كلامهم»^(١).



(١) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور (٢/٦٥ - ٦٦).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه

المبحث الرابع

ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه

عَلِمْنَا فيما مضى خلاف أهل العلم في اسمية ضمير الفصل أو حرفيته، وقد يكون من البدهي ألا يكون لهذا الضمير محلٌّ من الإعراب عند من يقول بحرفيته.

أما القائلون باسميته فاختلفوا إلى فريقين:

الفريق الأول: ذهب هذا الفريق إلى أنه لا محل له من الإعراب، وهو رأي جمهور البصريين^(١).

○ أدلة هذا الفريق:

١ - أن مجيء هذا الضمير إنما كان لغرض، وهو الإعلام بأن ما بعده خبر لا تابع، فأشبهه الحرف؛ إذ لم يُجَأْ به إلا لمعنى في غيره، والحرف لا موضع له

(١) انظر: الكتاب (٣٩٧/١)، والإنصاف (٧٠٧/٢)، وشرح المفصل (١١٣/٣)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (٢٤٥/١)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١٧٦/١ القسم الثاني)، ومغني اللبيب (٤٩٦/٢ - ٤٩٧)، وعروس الأفراح (٣٣٤/١).

من الإعراب^(١).

٢ - أن عدم تغير ضمير الفصل لتغير ما قبله دليلٌ على أن لا موضع له من الإعراب؛ ألا ترى نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَوْا أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْتُلُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، فلو كان له موضع من الإعراب لكان لفظ «إياي» أولى من «أنا» في الآية الأولى، ولكان لفظ «إياه» أولى من «هو» في الآية الثانية.

٣ - أن خلو ضمير الفصل من الإعراب أمرٌ غير مُستنكر وله نظائره، ومنها: «أل» الموصولة، والكاف في «ذلك»، و«أولئك»، ونحو ذلك.

الفريق الثاني: ذهب الكوفيون إلى أن له محلاً من الإعراب، ولكنهم اختلفوا في محله، فالفراء يجعل محله محل ما قبله، ويرى الكسائي (ت ١٨٩هـ): أن محله محل ما بعده^(٢).

(١) ينظر: الإنصاف (٧٠٧/٢)، والهمع (٦٨/١).

(٢) ينظر: الإنصاف (٧٠٦/٢)، وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١٧٦/١ القسم الثاني)، والجنى الداني للمرادى (ص ٣٥٠ - ٣٥١)، ومغني اللبيب (٤٩٧/٢)، وعروس الأفراح (١/٣٣٤).

وبناء على ما تقدم من قولِي الفراء والكسائي تظهر ثمرة الخلاف في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فعلى قول الفراء يكون محلُّ الضمير رفعًا بالتوكيد، وعلى قول الكسائي يكون محله نصبًا.

○ دليل هذا الفريق:

ضمير الفصل نوع من أنواع الضمائر، والضمير له محلٌّ من الإعراب عند التركيب، فوجب عندئذ استصحاب حكمه^(١).

● القول الراجح:

بعد عرض أدلة الفريقين يبدو أنَّ القول الراجح: هو رأي الفريق الأول؛ وذلك:

١ - لقوة أدلة هذا الفريق.

٢ - ولأنَّ الاسم الذي بعد ضمير الفصل يُعرب على حسب حاجة ما قبله من غير التفات إليه، وكأنَّه غير

(١) ينظر: شرح ألفية ابن معطي (١/ ٦٧٠).

موجود^(١).

٣ - ولأنَّ عدم إعراب ضمير الفصل هو الأكثر شيوعاً في اللهجات العربية.

٤ - إهمال ضمير الفصل وعدم إعرابه ورد في قراءات جمهور القراء السبعة، أما إعماله فقد ورد في قراءات شاذة، ومما قرئ في ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قرأ الأعمش (ت ١٤٨هـ) وزيد بن علي (ت ٣٥٨هـ): (الحقُّ) بالرفع^(٢).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، قرأ عبد الله بن مسعود: (الظالمون) بالرفع^(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُفَعِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، قرأ أبو السَّمَالِ^(٤)

(١) ينظر: النحو الوافي (١/٢٤٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/٤٨٨).

(٣) ينظر: مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه (ص ١٣٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٤/١٢١).

(٤) قال الذهبي في ترجمته: «أخذ عنه الحروف أبو زيد الأنصاري =

وابن السميع (ت ٢١٣هـ): (خيرٌ وأعظمُ) بالرفع^(١).



= النحوي، وفي ذلك أحرف شاذة...، ولا أعلم متى توفي، وكان معاصراً للكسائي، فمن اطلع على شيء من أخباره فليقد كتابنا. طبقات القراء (١/١٩٣).

(١) ينظر: مختصر في شواذ القراءات (ص ١٦٤)، والبحر المحيط (٣٦٧/٨).

ذكر الذهبي في ترجمة ابن السميع أن له قراءة معروفة، وفيها ما ينكر ويشذ، وإسنادها مظلم. انظر: طبقات القراء (١/١٩٥).

المَبْحَثُ الْخَامِسُ

شروط ضمير الفصل

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ

شروط ضمير الفصل

أورد ابن هشام في «مغني اللبيب» ستة شروط لضمير الفصل، وهي موزعة على النحو التالي^(١):

أولاً: شرطان فيما قبله.

ثانياً: شرطان فيما بعده.

ثالثاً: شرطان له في نفسه.

وإليك تفصيل القول في تلك الشروط.

أولاً: شروطه فيما قبله:

يشترط فيما قبل ضمير الفصل شرطان، وهما:

١ - أن يكون مبتدأ في الحال كقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾

[النساء: ١٥١]، أو في الأصل كاسم «كان وأخواتها»،

واسم «إن وأخواتها»، ومفعول «ظننت وأخواتها»، نحو

(١) ينظر: «مغني اللبيب» (٢/٤٩٣ - ٤٩٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله: ﴿وَلِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَلِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥ - ١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَدُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

٢ - أن يكون معرفة كالأمثلة السابقة، ونحو قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وأجاز بعض الكوفيين كونه نكرة، وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]، فأعربوا وقَدَرُوا ﴿أَرْبَىٰ﴾ منصوباً^(١).

ثانياً: شروطه فيما بعده:

يشترط فيما بعد ضمير الفصل شرطان هما:

١ - أن يكون خبراً لمبتدأ في الحال أو الأصل، وسبقت الأمثلة في ذلك.

٢ - أن يكون معرفة نحو الأمثلة السابقة، أو ما أشبه المعرفة في أنه لا يقبل «أل»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَوْا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، فقوله: «أقل»

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١١٣/٢)، ومغني اللبيب (٤٩٤/٢).

أفعل التفضيل، وهو يشبه المعرفة في أنه مع «من» لا يجوز إضافته، ولا يجوز: دخول «أل» عليه^(١).

وقرأ عيسى بن عمر الهمداني (ت ١٥٦هـ) برفع (أقل) ولا شاهد لضمير الفصل في هذه القراءة الشاذة^(٢)، بل يكون (أنا) مبتدأ، وخبره (أقل)، وفي ذلك يقول الفراء: «أنا» إذا نصبت «أقل» عماد، وإذا رفعت «أقل» فهي اسم، والقراءة بهما جائزة^(٣).

ثالثاً: شروطه في نفسه:

يشترط في نفس ضمير الفصل شرطان، وهما:

١ - كونه أحد ضمائر الرفع المنفصلة؛ أي: صيغة المرفوع، مثل: هو، هم، أنا، أنت، نحن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام ما يقع أحياناً من الخلط والالتباس بين ضمير الفصل والضمير

(١) ينظر: الكتاب (٣٩٢/٢)، وشرح المفصل (١١١/٣ - ١١٢)، وتعليق الفرائد (١٣٠/٢).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٢٩/٦).

(٣) معاني القرآن للفراء (١٤٥/٢).

المرفوع المنفصل، وما العلاقة القائمة بينهما؟

والجواب عن هذا السؤال من وجهين:

• الوجه الأول: تسمية «ضمير الفصل» تسمية بوظيفته وموقعه، أما الضمير المنفصل فهي تسمية بالعلامة؛ إذ لا يتصل بالفعل وإنما يقع منفصلاً عنه.

• الوجه الثاني: أما العلاقة بين الضميرين فهي علاقة نقل كما سبق، نقلت الضمائر المنفصلة المرفوعة من وظيفتها في الابتداء إلى وظيفة أخرى هي الفصل.

وثمة سؤال آخر يطرح نفسه، وهو: لماذا اختص المرفوع المنفصل بالفصل دون غيره من الضمائر؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن اختصاص المرفوع المنفصل بالفصل؛ لما فيه من التوكيد، ألا ترى كيف أفاد التوكيد نحو قوله تعالى: ﴿وَيَتَكَادُمْ أَتَكُنَّ أَنْتَ وَرَوَجُكَ آلَجَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

٢ - أن يكون مطابقاً للاسم الذي قبله، في التكلم والخطاب والغيبة، وفي الأفراد والتثنية والجمع، وفي التذكير والتأنيث، يقول المالقي (ت ٧٠٢هـ): «واعلم أن هذه الألفاظ - أي: ضمائر الفصل - تجري على ما قبلها

من الإفراد أو التثنية أو الجمع، أو التذكير أو التأنيث، أو الحضور...»^(١).

واليك الأمثلة الدالة على ذلك:

المطابقة في التكلم والخطاب والغيبة:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]،
وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، فقد جاء
الفصل هنا مطابقاً لما قبله في التكلم، ومثال ما جاء فيه
الفصل مطابقاً لما قبله في الخطاب قوله تعالى: ﴿كُنْتُ
أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، وأما المطابقة في الغيبة فنحو
قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:
٧٦]، وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

المطابقة في الإفراد والتثنية والجمع:

فمن أمثلة ما جاء فيه الفصل مطابقاً لما قبله في
الإفراد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:
٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وأما

(١) رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ص ١٣٠).

مطابقة الفصل بصيغة المثنى فإنها لم ترد في القرآن الكريم.

ومثال ما جاء فيه الفصل مطابقاً لما قبله في الجمع قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وقوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا أَتَيْنَاكُمْ أَظْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

المطابقة في التذكير والتأنيث:

فمن أمثلة التذكير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وقوله: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

وأما التأنيث فمن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، وقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الْفَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أن عدم تحقيق صورة المطابقة قد تؤدي إلى الخروج عن باب ضمير الفصل إلى أبواب أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتَهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] نجد أن صورة التطابق لم تتحقق في هذا التركيب؛ ولهذا فإنَّ الهاء في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن والقصة.

هذه مقدمات موجزة، وإطالة سريعة على بعض مسائل ضمير الفصل، ولا أريد أن أطيل؛ إذ إن محدودية البحث تلزمني بالاكْتفاء بما تقدم.



الْفَصْلُ الثَّانِي

وظائف ضمير الفصل

في القرآن الكريم



توطئة

يستفاد من كلام المفسرين والبلاغيين واللغويين أن
لضمير الفصل وظائف وأغراضًا يحققها عند الإتيان به،
وبعد التأمل والاستقراء يمكن إجمال تلك الوظائف في
الأمور التالية:

الوظيفة الأولى: التوكيد والتقوية، ولها دلالتها
المعنوية، قال أبو حيان: «فائدة الفصل عند الجمهور
التأكيد»^(١).

الوظيفة الثانية: القصر والحصر والاختصاص،
وهي معنوية أيضًا، واهتم بها البلاغيون^(٢).

الوظيفة الثالثة: التمييز بين الخبر والتابع، وهي
لفظية، واقتصر على ذكرها أكثر النحاة^(٣).

(١) ارتشاف الضرب (١/٤٩٥).

(٢) انظر: دلائل الإعجاز (ص١٧٩)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٦).

(٣) انظر: مغني اللبيب (٢/٤٩٦)، وعروس الأفراح (١/٣٣٣).

وجمع الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) هذه الوظائف المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فقال: «وفائدته الدلالة على أنَّ الوارد بعده خبرٌ لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أنَّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره»^(١).

وهكذا نستطيع أن نقول: إنَّ وظائف ضمير الفصل قد اكتملت رؤيتها عند الزمخشري، وهو أمر أثنى عليه ابن هشام، وعاب على النحاة اقتصارهم على وظيفة لفظية واحدة، وهي التمييز بين الخبر والتابع^(٢).

وإليك تفصيل هذا الإجمال على النحو التالي:

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (١/١٤٦).

(٢) انظر: مغني اللبيب (٢/٤٩٦).

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

وظيفة التوكيد والتقوية

للمبحث الأول

وظيفة التوكيد والتقوية

قبل البدء في عرض وظيفة التوكيد والتقوية لضمير
الفصل لعل من الأجدر أن نذكر تعريف التوكيد لغة
واصطلاحاً، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول

التعريف اللغوي للتوكيد

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): «الواو والكاف والذال: كلمة تدل على شد وإحكام...»^(١)، والهمزة فيه (أكد) مبدلة من واو.

ويقول الفيروزابادي (ت ٨١٦هـ): «وَكَّدَ يَكِدُ وَكُودًا: أقام، وقصد،... وَكَّدَ الرَّحْلَ: شدّه»^(٢).

من خلال هذه المعاني يتبين لنا أن من دلالات هذه المادة ما يفيد معنى التقوية والإحكام.

ومما جاء في التنزيل: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]؛ أي: تقويتها وإحكامها.



(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/١٣٨).

(٢) القاموس المحيط للفيروزابادي (ص ٤١٧).

المطلب الثاني

التعريف الاصطلاحي للتوكيد

المتأمل في التعريف الاصطلاحي للتوكيد يجد التناسب التام بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فمن معانيه الاصطلاحية ما ذكره يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) بقوله: «تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره»^(١).

وعرّفه أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) بقوله: «هو أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته»^(٢).

وللتوكيد عند النحويين والبلاغيين أنواع وصور وأدوات وأساليب ليس هذا المقام مقام تفصيلها، والذي يعيننا هنا هو أن نعلم أنّ ضمير الفصل وإن لم يكن ضمن أساليب التوكيد اللفظي أو التوكيد المعنوي بالمفهوم

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي (١٧٦/٢).

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص ٢٦٩).

النحوي إلا أنه جزء من أسلوب التوكيد بمفهومه الواسع وأهم وظائفه المعنوية، فثمة أساليب كثيرة تفيد التأكيد مع ما تفيد من أسرار ومعطيات بلاغية كالتقسيم، و«إن»، ولام الابتداء، والاشتغال.

ومن أجل إفادة ضمير الفصل التأكيد سَمَّاه بعض الكوفيين كما سبق دعامة، كما لا يُجْمَعُ بينه وبين ألفاظ التوكيد، فلا يقال على سبيل المثال: «أولئك أنفسهم هم المفلحون»، فقد استغنوا عنه بالتوكيد، وهذا الاستغناء دليلٌ على أنه يجيء ليؤدي تلك الوظيفة^(١).

ومن المفيد في هذا المقام كذلك أن نذكر أنَّ ابن الحاجب أنكر إفادة ضمير الفصل للتوكيد، ومن كلامه: «لا جائز أن يكون تأكيداً؛ لأنه لو كان تأكيداً لم يَحُلْ إما أن يكون لفظياً، وإما أن يكون معنوياً، لا جائز أن يكون لفظياً؛ لأنَّ اللفظي إعادة اللفظ الأول بعينه إن كان ظاهراً... ولا جائز أن يكون معنوياً؛ لأنَّ المعنوي بألفاظ تُحفظ ولا يقاس عليها»^(٢).

(١) ينظر: مغني اللبيب (٤٩٦/٢)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٥٠٦/٢).

(٢) الأمالي النحوية لابن الحاجب (١٠١/٤).

وابن الحاجب صنيعة مستغرب، وهو محجوج بما ذكرناه آنفاً من أن ضمير الفصل يفيد التوكيد بالمفهوم اللغوي الواسع، وليس بالضرورة أن يكون توكيداً لفظياً أو معنوياً.

يقول بهاء الدين السبكي في رده على كلام ابن الحاجب: «وأما قوله: إنه ليس تأكيداً، ففيه نظر، ولا يُسَلَّمُ أنَّ التأكيد منحصرٌ فيما ذكره؛ لأنَّ التأكيد الذي ذكره هو التوكيد الذي تكلمَّ عليه النحاة في باب التابع، ولكنه تأكيد باصطلاح الأصوليين وأهل المعاني... وكأنه توهم أنَّ المراد: أنَّ الفصل تأكيد للمسند إليه، وليس كذلك، بل هو تأكيد للجملة»^(١).

ويمكن أن يقال لابن الحاجب أيضاً - من باب التنزل على مذهبه -: إنَّ ضمير الفصل حينما يتوسط بين المبتدأ والخبر لتأكيد الإسناد، أو ما أصله كذلك، فهو بمثابة التكرار اللفظي، وقد أشار إلى هذا الملحظ الزجاج، ففي معرض كلامه عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] يقول: «... هم» دخلت

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي

فصلاً ، وإن شئت كانت تكريراً للاسم»^(١) .

وبما أن أمثلة ضمير الفصل المفيدة للتوكيد مستفيضة في القرآن الكريم وأكثر من أن تحصى؛ فإنني آثرت إعطاء مزيد من التحليل لضمير الفصل الواقع في سياق آيات المتشابه اللفظي؛ وذلك لكون الأسرار البلاغية واللمسات الإعجازية تبرزان أكثر في تلك السياقات.

ضمير الفصل وآيات المتشابه اللفظي^(٢) في القرآن الكريم:

أمثلة تطبيقية:

تأتي في القرآن الكريم آيات متشابهة متوائمة أُكِّدت بضمير الفصل في موطن، ولم تؤكِّد في موطن آخر شبيه به، فما السبب؟

الجواب: أن السياق أحياناً هو الذي يحدد وجود الفصل في مقام، وخُلُوّه منه في مقام آخر.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٧٤).

(٢) تقييد المتشابه هنا بوصف اللفظي احترازاً من المتشابه المقابل للمحكم ويقال له: المتشابه المعنوي، فذلك المتشابه ليس مجال بحثنا.

ومما هو معلوم عند اللغويين والمفسرين والأصوليين أنَّ للسياق دورًا كبيرًا في تحديد دلالات النص، والوقوف على المعاني المقصودة دون غيرها^(١).

فمن المقولات المشهورة عندهم: «لكل مقام مقال»^(٢)، و«مطابقة الكلام لمقتضى الحال»^(٣).

كما أنَّ المتأمل في التوكيد القرآني عمومًا يجد أنَّ القرآن الكريم قد راعى اختيار أساليب التوكيد أدق المراعاة، فهو في غاية الدقة في انتقاء الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضوع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة^(٤).

(١) لابن القيم كلام نفيس في دور السياق في إبراز المعاني حيث يقول: «السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... وتنوع الدلالة». بدائع الفوائد لابن القيم (٨١٥/٤).

ومن أوضح الأمثلة الدالة على دور السياق في تحديد الدلالة: المصادر الميمية وأسماء الزمان والمكان التي تصاغ من الثلاثي المجرد على وزن (مَفْعَل) بفتح العين، نحو: مَذْهَبٌ، وَمُخْرَجٌ، وَمَشْرَبٌ، فهذه الأمثلة ونحوها لا يمكن الوقوف على الفرق بين اسم الزمان واسم المكان إلا بسياقها الذي يحدد المراد، ويعين المقصود.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (١/١٣٦).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ص ٨٠).

(٤) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص ١٢٨).

وكأنَّ القارئ يشعر أنَّ هذا المكان، إنَّما خُلقت له تلك الكلمة بعينها، وأنَّ كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها.

وقد اعتنت مؤلفات توجيه المتشابه اللفظي في تَلْمُسِ تلك الأسرار البلاغية وإبرازها، ولعل من أبرزها كتاب «درة التنزيل، وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، «والبرهان، في توجيه متشابه القرآن» للكرماني (ت ٥٠٥هـ)، و«ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل» لابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، و«كشف المعاني، في المتشابه من المثاني» لابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وغيرها.

وها هي تلك الأمثلة الدالة على أسرار آيات المتشابه اللفظي مع ضمير الفصل:

المثال الأول: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله في سورة فصلت: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فقد ورد الفصل في آية فصلت دون آية الأعراف فما السر في ذلك؟

التحقيق: أن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به، فالقرآن الكريم يستعمل ضمير الفصل حسبما يقتضيه السياق والذوق اللغوي.

يذكر الخطيب الإسكافي أن آية فصلت جاءت بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله؛ وهو أن يدفع السيئة بالحسنة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وتأمل قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وأما آية الأعراف فقد سبقها الأمر بالإعراض عن الجاهلين ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة فصلت؛ ولهذا أكد وعرف في سورة فصلت فقال: ﴿هُوَ﴾ وترك التوكيد والتعريف في سورة الأعراف^(١).

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ص ٤١٩ - ٤٢٠).

وأما القاضي زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) فوجه بين الآيتين بقوله: «قاله هنا - أي: سورة فصلت - بزيادة «هو» و«أل»، وفي الأعراف بدونها؛ لأن ما هنا متصل بمؤكدين: بالتكرار وبالحرص، فناسب التأكيد بما ذكر، وما في الأعراف خَلِيٍّ عن ذلك فجرى على القياس من كون المسند إليه معرفة، والمسند نكرة»^(١).

وبعد التأمل في السياق السابق واللاحق للآيتين وجدت توجيهاً آخر وهو: أن آية الأعراف لم يتقدمها من مخلوقات الله ما هو موصوف بصفة السمع والعلم، بل تقدمها ذكر الأصنام التي لا تسمع ولا تعلم، قال تعالى: ﴿أَشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا يَسْتَبْعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢].

وتأمل كذلك قول الله ﷻ حينما نفى عنهم السمع والبصر وآلة المشي وآلة البطش: ﴿أَلَمْ يَأْتِ الْبَصَرَ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ لَوْ يَنْظُرُونَ فَلَا تُنظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للقاضي زكريا الأنصاري (ص ٥٣٩).

أما آية فصلت فقد تقدّم قبلها خطابات تحكي عن عالمي الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ أَلْحِنِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]، وهؤلاء المذكورون المضلّون من عالمي الجن والإنس موصوفون بالسمع والبصر وينسب إليهم العلم، ولهذا أكّد بضمير الفصل في آية فصلت، وجاء في الخبر والنعته المحلّيين بـ «أل» الاستغراقية ﴿الَسْمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وكأنّ السياق يقول: لا أحد غيره السميع، ولا أحد غيره العليم.

ما أروع هذا الإعجاز، وتلكم الأسرار البيانية في كل كلمة من كلمات هذا القرآن!

المثال الثاني: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله في سورة لقمان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

فالتشابه بين الآيتين واضح إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ

الْبَطْلُ ﴿ وَخَلَّوْهُ مِنْهُ فِي آيَةِ لَقْمَانَ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَطْلُ﴾ .

والسبب في ذلك كما يوجهه الخطيب الإسكافي: أن سياق الآيات التي قبل آية الحج قد أكد بعدة مؤكّدات مترادفة، فلما بني السياق على ذلك أكّدت هذه الآية بضمير الفصل، أما آية لقمان فليس الأمر كذلك، فلم يحتج إلى التوكيد بضمير الفصل.

وفي ذلك يقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والجواب أن الأولى وقعت في مكان تقدمت فيه توكيدات مترادفة في ستة مواضع وهي: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فاللام والنون مؤكّدتان، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨]، واللام مع «هو» مؤكّدان، وبعده: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ واللام والنون سبيلهما تلك السبيل، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، اللام التي في خبر «إن» كذلك، وبعده: ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]، فلما ترادفت التوكيدات جاء في هذا الموضوع مؤكداً بقوله: (هو) في الآية... وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان؛ لأنه لم تتقدمه التوكيدات التي

تستيع أمثالها كما تقدمت في الأولى^(١).

وللالوسي (ت ١٢٧٠هـ) رحمه الله توجيه آخر في دلالة زيادة ضمير الفصل في سورة الحج، لما أن الحط على المشركين وألهمتهم في هذه السورة دون الحط عليهم في سورة لقمان^(٢).

ومعنى كلامه رحمه الله: أن فكرة بطلان الشركاء وذكر ألهمتهم المزعومة تكرر إيرادها في سورة الحج، كما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَليْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢ - ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَّتْهُ الطَّيْرُ أَوْ نَهَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ [الحج: ٣١].

وجاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

(١) المصدر السابق (ص ١٧٣)، وانظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٤٣٥ - ٤٣٦).

(٢) انظر: روح المعاني (١٠٤/٢١).

وَالْمَطْلُوبُ ﴿ [الحج: ٧٣]، كل ذلك استدعى وناسب التأكيد بضمير الفصل.

ويرى الدكتور فاضل السامرائي: أنَّ السياق في آية الحج يركز على توضيح ثنائية الحق والباطل وإبرازها، ذلك الصراع العنيف مع الذين يعاجزون ويعاندون الحق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١]، ولا يوجد مثل هذا الصراع في سورة لقمان، فلم يقتض السياق ما اقتضاه في آية الحج من التوكيد^(١).

المثال الثالث: قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقوله في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وقوله في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤].

(١) ينظر: على طريق التفسير البياني للدكتور فاضل صالح السامرائي (٣٦٩/٢ - ٣٧٠).

يلاحظ هنا زيادة ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين؛ والسبب في ذلك: أن آية الزخرف قد قيلت في سياق عبادة عيسى ﷺ واتخاذها إلهًا من دون الله بخلاف الآيتين الأخريين، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له.

يقول ابن الزبير الغرناطي في «ملاك التأويل»: «وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحرز بمفهومه معنى ضروريًا دعا إليه ما تقدم في الآية قبله... فلما كان قد تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: ﴿إِلَهَاتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨] يَعْنُونَ: المسيح؛ ناسبه ما أعقب به من قوله تعالى حاكياً عن المسيح ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٤]... فأحرز «هو» هذا المعنى، ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرنا»^(١).

وللخطيب الإسكافي توجيه آخر يختلف عن توجيه ابن الزبير، فهو يوجّه سبب الحذف في آيتي آل عمران ومريم: أن آية آل عمران وقعت بعد عشر آيات نزلت في قصة مريم وعيسى ﷺ فاستغنى عن التأكيد بما تقدّم من

(١) ملك التأويل (١/٣٠٨ - ٣٠٩).

الآيات الدالة على أَنَّ الله سبحانه ربه وخالقه، لا أبوه ووالده كما زعمت النصارى، وهكذا الحال في سورة مريم وقعت بعد عشرين آية من قصة مريم عليها السلام، فأغنى ذلك عن ذكر ضمير الفصل، وأما آية الزخرف فلم يتقدمها مثل ذلك، فناسب تأكيد إثبات الربوبية ونفي الأبوة عن الله تعالى^(١).

ويبدو بعد الموازنة بين التوجيهين أن توجيه ابن الزبير أقرب إلى الصواب؛ ذلك أن مجموع الآيات التي وردت في قصة عيسى عليه السلام في سورة الزخرف ثمانى آيات، وما جاء في آل عمران عشر آيات، فالعدد متقارب، وهو أمر يدل على أَنَّ توجيه الخطيب الإسكافي غير دقيق وغير مطرد.

ومما يؤيد أيضاً رأي ابن الزبير: ما جاء في سياق آيات الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]، فهناك ادعاءات ومزاعم قد ظهرت كقولهم: عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ، فاحتاج الأمر إلى إزالة تلك الشبهة، ورد تلك

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ص ٣٦).

المزاعم، وتأكيد وحدانية الله وتفرد به بالعبادة، وهذا ما أفاده ضمير الفصل في آية الزخرف.

يقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لآية الزخرف: «وضمير الفصل أفاد القصر؛ أي: الله ربي لا غيره، وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحدين، لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا: عزيز ابن الله»^(١).

ومن اللطائف البلاغية المذكورة هنا أيضًا: تكرار لفظ ﴿رَبِّي وَرَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٦٤] فهو أبلغ في التزام العبودية من قوله: «ربنا»، وأدل على التبري من الربوبية^(٢).

وانظر كذلك إلى سر تقديم نفس عيسى على قومه في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكَ﴾؛ «لقصد سد ذرائع الغلو في تقديس عيسى، وذلك من معجزاته؛ لأن الله علم أنه ستغلو فيه فرق من أتباعه فيزعمون بُنُوته من الله على الحقيقة»^(٣).

ما أعظم كلام الله وأبلغه! وأنى لكلام بشر أن يسمو فيداني كلامه المعجز!

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٤٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢/٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/٢٤٨).

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تأمل كيف جاء في الآية الثانية بضمير الفصل دون الآية الأولى، والسر البلاغي في ذلك: أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها، فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن الجملة الفعلية ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فناسب كل ذلك تأكيد الفوز وعظمه^(١).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٦٤ - ٢٦٥)، والتعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص ١٤٨ - ١٤٩).

أرأيت إلى هذا البناء المحكم، وهذا النظم الرباني البديع، وتلك الدقة المتناهية المتلائمة مع السياق! والتعبير بصيغة التفضيل في قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ ولم يذكر معه المُفْضَل عليه لظهوره من المقام كما سبق تقديره آنفاً، وفي ذلك دليل على أَنَّ السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية^(١).

ولقد تأملت ضمير الفصل وتعبير هذا الوصف ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] في آيات الكتاب العزيز، فوجدت أنه ذُكِرَ في سبعة مواضع، وحذف منه في ستة مواضع، ويلاحظ أَنَّ الآيات التي جاء التركيب مؤكداً بضمير الفصل سبقت بما يشعر بادعاء طرف آخر الوصول إلى الفوز، أو توهم أَنَّ ما يطلبه فوز وليس بفوز في الحقيقة، فالآية التي نحن بصدد الحديث عنها سبقتها آيات تتحدث عن المنافقين ومصيرهم: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ سُوا اللَّهِ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧ - ٦٨].

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٦٥).

ومن تلك الآيات قوله تعالى في سورة التوبة أيضًا:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ وَعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فقد سبق هذه الآية ذكر بعض أعمال المنافقين كبناء مسجد الضُّرَّارِ، وكانوا يريدون إيهاهم المسلمين أنهم يريدون الخير والفوز، فجاءت الآية مُبَيِّنَةً الفوز الحقيقي الذي لا رياء فيه ولا سمعة، وجاء الجزء مؤكدًا بتوسط ضمير الفصل ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

- وفي سورة يونس: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بَدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

- وفي سورة الصافات تعقيبًا على جزاء عباد الله المخلصين: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٦٠].

- ومما جاء على لسان الملائكة في دعائهم للمؤمنين في سورة غافر: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

- وجاء في سورة الحديد في ذكر مآل المؤمنين والمؤمنات: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ بَشْرَتِكُمْ أَلْيَوْمَ جَنَّتْ نَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

كل هذه الآيات جاء ضمير الفصل فيها ليؤكد التناسب التام بين حقيقة الجزاء والتعبير بالفوز العظيم.

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ يُهْدِيهِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي ثُمَّ يُخَيِّبُنِي﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١].

في هذه الآيات قد ظهر ضمير الفصل مع أفعال الهداية، والإطعام، والإسقاء، والشفاء، ولم يُذكر هذا الضمير مع الأفعال الثلاثة الأخرى وهي: (خلقني، يمينني، يخينني).

والسر البلاغي في هذا الذكر وهذا الحذف: هو أننا نجد ضمير الفصل حيث يتوهم في الفعل شراكة كما في الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء، فقد يدعى المخلوق أنه يفعلها؛ ولهذا جاء التعبير القرآني بضمير الفصل مع تلك الأفعال ليؤكد نسبتها إلى الله تعالى وتخصيصه بها.

وأما أفعال الخلق والإماتة والإحياء فلا يتوهم فيها الشراكة، ولا يمكن أن يدَّعيها أحد لنفسه، بل هي خاصة بالله تعالى دون منازع؛ ولهذا لم تكن هناك ضرورة للإتيان بضمير الفصل^(١).

وهنا يظهر كذب ووهم وادّعاء نمروود الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربِّه حينما قال: ﴿أَنَا أُخِي وَأُمِّيْتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وشتان بين ترك حياة إنسان والإحياء، وما بين القتل والإماتة!

يقول الشيخ الشعراوي رحمته الله (ت ١٤١٨هـ)^(٢):
 "... ولو أنَّ الله تعالى استخدم كلمة [هو] مع كل الأفعال المذكورة في الآيات؛ أو حذف كلمة [هو] من كل الأفعال المذكورة، لما تنبَّه لذلك معظم الناس، ولمضى الحديث على أنه كلام بشر، ولكنَّه كلام الله تعالى»^(٣).

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٧/٢٤ - ٢٥)، وعروس الأفراح (٢/٣٣٢)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٤٥٦).

(٢) الشيخ الشعراوي ظاهرة فريدة في زماننا، فقد استطاع الشيخ عبر برامجه التلفزيونية أن يأخذ جمهور العامة إلى قضايا التدوق ببلاغة القرآن، وهو أمر عجز عنه غيره، حيث لم يستطيعوا أن ينزلوا بهذه القضايا إلى عامة الناس، بل ظلت دائرة فيما بينهم.

(٣) معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي (١/٥١).

وقد تناول ابن عاشور رحمته الله هذه الآيات في تفسيره ولم يجعلها من قبيل ضمير الفصل، بل رد على ذلك حيث قال: «وليس الضمير ضمير فصل؛ لأنَّ ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف»^(١).

واعترضه هنا اعتراضٌ وجيه؛ إذ يشير إلى أنه لا يلزم في كل ضمير أفاد معنى التوكيد والاختصاص أن يكون للفصل، وذلك لفقده أحد شروط كونه فصلاً.

ومن دقائق البلاغة الكامنة في هذه الآيات: أن كل حرف من حروف العطف عطف في موضعه الملائم من السياق، ومكانه الدقيق، ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، نجد أن حرف العطف هو الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب؛ إذ الهداية إنما تأتي بعد الخلق، والشفاء إنما يعقب المرض.

أما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] فقد عطف بالواو التي لا تدل على الترتيب، بل هي لمطلق الجمع، ولهذا لا ترتيب في الإطعام

(١) التحرير والتنوير (١٩/١٤٢).

والإسقاء، فقد يتقدم أحدهما على الآخر، وقد يجتمعان.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُ ثُمَّ يُحْيِي﴾ [الشعراء: ٨١] فقد عطف بـ«ثم» التي تدل على الترتيب مع التراخي، ومعلوم أن إحياء البعث يكون بعد الموت بزمان ومهلة كما قال الله جلَّ وعلا في آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنَا لَهُ فَاقِرٌ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَشْرُهُ﴾ [عبس: ٢١ - ٢٢].

يقول ابن الأثير رحمته الله في سياق حديثه عن البلاغة القرآنية التي تضمنتها الآيات المذكورة: «كل شيء من الأفعال المذكورة قد عطف بما يناسبه، ويقع موقع السداد منه... وهذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى»^(١).

(١) المثل السائر لابن الأثير (٢/٢٥٩ - ٢٦٠).

وقال أيضًا عن أسرار حروف العطف: «وهذا موضع من علم البيان شريف، وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغي» المثل السائر (٢/٢٦١).

ومن تلك الأسرار البلاغية أيضًا أن إبراهيم عليه السلام أسند المرض إلى نفسه فلم يقل: أمرضني، وأسند الشفاء إلى الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] تأدبًا مع الله تعالى، وإلا فالمرض والشفاء من الله تعالى.

انظر: البحر المحيط (٧/٢٥)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٤٥٧)، وتفسير أبي السعود (٦/٢٤٩)، والتحرير والتنوير (١٩/١٤٣).

ما أروع هذا الإعجاز الذي لا تنهض به الكلمات،
وتعجز عنه العبارات!

المثال السادس: قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾
[الأعراف: ٤٥].

وقوله تعالى في سورة هود: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

ففي الآية الأولى لم يذكر ضمير الفصل بعد قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾، وأما في الآية الثانية فقد جاء بضمير الفصل، والسر في ذلك كما يقول ابن الزبير الغرناطي: أن سياق آية هود بني على الإطناب، فناسب زيادة ضمير الفصل، وسياق آية الأعراف بني على الإيجاز فناسب سقوطه^(١).

ومن القرائن الدالة على الإطناب في سياق آية هود: ورود الظاهر في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيَّ رَبِّيهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ولم يقل: ألا لعنة الله عليهم^(٢).

(١) ينظر: ملاك التأويل (٢/٤٩٦).

(٢) ينظر: ملاك التأويل (٢/٤٩٦)، وفتح الرحمن بكشف ما يتبس في القرآن (ص ١٩٣).

ويرى ابن عاشور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ السر في زيادة الضمير في سورة هود هو: «أَنَّ المقام هنا تسجيلُ إنكارِهِم البعثَ وتقديرُهُ؛ إشعارًا بما يترقبهم من العقاب المناسب؛ فحكي به من كلام الأَشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكايةٌ لما قيل في شأن قوم أُدخِلوا النارَ وظهر عقابهم، فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأَشهاد، وكلتا المقالتين واقع وإنما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية»^(١).

وأما الدكتور السامرائي فيرى أَنَّ صفات الظالمين في آية هود أكثر وأشد منها في آية الأعراف؛ ولهذا ناسب التأكيد بضمير الفصل، فيقول في هذا الصدد: «فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أَنَّهُمْ ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]، وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨]، فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة ﴿هُم﴾ وزاد لهم في العذاب فقال: ﴿يَضَعُفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود: ٢٠]، وزاد في صفة الخسران فقال ﴿هُمُ الْآخِضَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]»^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣٤/١٢).

(٢) التعبير القرآني (١٥٦).

المثال السابع: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالِبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَالِبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فقد ذكر ضمير الفصل في آية النحل دون آية العنكبوت، وفي ذلك يعلل الخطيب الإسكافي: أن سياق آية النحل متصل بالمخاطبين، ثم انتقل الكلام في نهاية الآية عن الخطاب إلى الإخبار - وهو ما يسمى بالالتفات^(١) -، فأكد الكلام بضمير الفصل لئلا يتوهم أن هذا الإخبار خطابٌ، ولم يكن كذلك الأمر في سورة العنكبوت؛ لأن الإخبار المستمر في الآية التي قبل هذه أغنى عما يحصره للخبر دون غيره، وهو قوله: ﴿فَإِذَا

(١) الالتفات: مصطلح بلاغي يقصد به التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة بعد التعبير عنه بآخر منها.

انظر: تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ص ٨٦)، ومعجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة (٧٩٢/٢).

رَكِبُوا فِي الْفَلَاحِ دَعَاُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الدَّرِ
إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُحِطُّفُ النَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿العنكبوت: ٦٥ -
٦٧﴾ فترادف الإخبار عن الغيب أغنى عن توكيده^(١).

المثال الثامن: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَفُصِّحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً
إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو الغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴿الحج: ٦٣ - ٦٤﴾.

وقوله في سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴿لقمان: ٢٦﴾.

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ
لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىُّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿العنكبوت: ٦﴾.

يلاحظ أن الله ﷻ قد قال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُو الغَنِىُّ الْحَمِيدُ﴾، وقال في لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِىُّ
الْحَمِيدُ﴾ فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان؛ إذ زاد لام

(١) درة التنزيل (ص ١٥١).

وانظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٣٧٣ - ٣٧٤)،
وتفسير أبي السعود (٥/١٢٨)، والتحرير والتنوير (١٤/٢٢٠).

الابتداء فيها فأدخلها على (هو)، وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطفه بهم ما لم يذكره في لقمان.

وأما السياق في سورة العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان، وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [١] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَمَن جَاهَد فَإِنَّمَا يَجُهِد لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] فاختلف أسلوب التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغني وزيادة اللام في الحج، وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يُعرّف الغني في العنكبوت. وذلك أنه في الحج ولقمان ذكرٌ لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق، وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه، وثمة فرق بين الغنيتين: فالأول غنى مُلك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين.

وتأمل في خاتمة الآي في كل منها، فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطفه على خلقه قال:

﴿الْفَقِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]؛ أي: الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في سورة لقمان، وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذِكْرِ الفتن - نسأل الله العافية منها - لم يقل: ﴿الْفَقِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بل قال: ﴿لَقِيْنَا عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]؛ أي: غني عن جهادهم^(١).

ونلاحظ هنا كذلك كيف أنَّ الله ﷻ لم يكتف بوصف ذاته العلية بالغنى بل قال: ﴿الْفَقِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فهو المحمود في غناه والمحمود في صفاته كلها على جهة الثبوت، وفي ذلك تعريض بالأغنياء المذمومين الذين لا يحمدهم أحد ولم يأتوا بما يحمدون عليه.

المثال التاسع: قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجنابة: ٣٠].

يلاحظ أنَّ ضمير الفصل ذُكِرَ في آية الجاثية دون آية الأنعام، وفي ذلك يُعَلَّلُ ابن الزبير فيقول: «إِنَّ آية الأنعام قد تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ

(١) انظر: التعبير القرآني (ص ١٦٨ - ١٦٩).

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[الأنعام: ١٥] ثم أعقبها بقوله: ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦]، والمراد به: عذاب الآخرة، فلم يتقدم من أول السورة إلى هذه الآية ما يُتوهم أنه فوز؛ ولذا لم يكن هناك داعٍ إلى ضمير الفصل. أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبراً عن قول منكري البعث: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فأفهم قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أن هذه الحياة هي الحاصلة لهم ولا حياة وراءها، فمن تنعم فيها فذلك فوزه، فأخبروا أن الأمر ليس كما ظنوا، ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فكان قد قيل لهم: ذلك هو الفوز لا ما ظننتموه فوزاً، فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود، ولم يتقدم في آية الأنعام ما يستدعيه، فجاء كلُّ على ما يناسب^(١).

ويرى الدكتور محمد فاضل السامرائي أن درجة الفوز في آية الجاثية أعلى منها في آية الأنعام؛ ذلك أن الله جلَّ وعلا قال في آية الجاثية: ﴿فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الجاثية: ٣٠] و(في) تفيد معنى الظرفية، فكان رحمة الله شيء تضمهم وتجعلهم منغمسين ومتنعمين فيها، وهذا

(١) انظر: ملاك التأويل (١/٤٢٥ - ٤٢٦).

المفهوم غير موجود في آية الأنعام، حيث قال: ﴿فَقَدْ رَجِمْتُمْ﴾ [الأنعام: ١٦] بصيغة الفعل الماضي، وهنا كانت درجة الفوز في آية الجاثية أعلى لعلو المكانة فيها.

ولما كان الأمر كذلك أكد الفوز بضمير الفصل (هو) في آية الجاثية، ولم يؤكد في آية الأنعام^(١).

المثال العاشر: قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ففي سورة السجدة أثبت ضمير الفصل (هو) من أجل التأكيد والحصر لفصل الخلاف المذكور في قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وأما السياق في سورة الحج فلم يذكر الاختلاف، وإنما ذكر الشهادة على كل شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فاقضى المقام تأكيد الفصل في آية السجدة دون آية الحج.

(١) انظر: دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل للدكتور محمد فاضل السامرائي (ص ٢١٨).

يقول ابن عاشور رحمه الله مشيراً إلى ضمير الفصل المذكور في آية السجدة: «وضمير «هو» في قوله: ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ [السجدة: ٢٥] ضمير فصل؛ لقصر الفصل عليه تعالى؛ إيماءً إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعاً منه أن يرددوا عن اختلافهم، وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم؛ لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة»^(١).

وهكذا تبين لنا ما لضمير الفصل مع آيات المتشابه اللفظي من أسرار بلاغية، ودلالات بيانية لا تنفذ، ولا يمكن لأحد حصرها.

فكتاب الله جلَّ وعلا تقع كلُّ لفظة منه موقعها المناسب، وذلك خصيصة من خصائصه، كما أنه وجهٌ من وجوه إعجازه البلاغي، بل هو أبرز وجه كما هو مبثوث في كتب إعجاز القرآن الكريم.

تلك كانت أبرز آيات المتشابه اللفظي التي تمكّنت من رصدها، وهي غيضة من فيض من بحر البلاغة القرآنية، ويكفي أن نأتي بما يسمح به المقام، وقديماً قيل: يكفي من القِلادة ما أحاط بالعُنق.

(١) التحرير والتنوير (٢٣٩/٢١).

وهذه أيضًا طائفة من الشواهد القرآنية أفاد فيها ضمير الفصل التوكيد والتقوية، وهي ليست من آيات المتشابه اللفظي:

- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

يقول ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية: «واقحام ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند في مثل هذه الأمثلة استعمالٌ معروف لا يكاد يتخلف؛ قصدًا لتأكيد الاتحاد، فليس في مثل هذا التركيب إفادة قصر أحد الجزأين على الآخر، وليس ضمير الفصل فيه بمفيد شيئًا سوى التأكيد»^(١).

- وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

انظر إلى سمو التعبير القرآني كيف هو معجز وبديع في كل مفردة وتركيب، لم يقل في هذا السياق: «أنت العالی»، ولم يقتصر على أحد الضميرين فيقول: «إنك الأعلى» أو «فأنت الأعلى»، بل أكد القول بـ«إن»، وأكد ضمير المخاطب المتصل بضمير الفصل ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ وجاء الخبر على صيغة اسم التفضيل ﴿الْأَعْلَى﴾، وعرفه بـ«أل»،

(١) التحرير والتنوير (١٥٢/٦).

كل ذلك لإبراز علوه وغلبته ﷺ على خصومه، وليزيد في طمأنينة قلبه بوعد ربه جلَّ جلاله.

- وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١].

فصمير الفصل في قوله: ﴿كَانُوا هُمْ﴾ جيء به للتأكيد، ولا يراد به قصر المسند على المسند إليه؛ إذ ليس للقصر معنى هنا^(١).

وعلى هذا النهج جاءت الآيات التالية:

- ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

- ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢].

- ﴿قَالُوا أَوَإِن كَلَّمْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

- ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

- ﴿وَقَدَّمَ نُوحٌ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

- ﴿وَمَا نَقُصُّوهُ إِلَّا نَفْسُكَ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ

أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

(١) انظر: المصدر السابق (١١٩/٢٤).

المَبْحَثُ الثَّانِي

وظيفة القصر والحصر والاختصاص

المَبْحَثُ الثَّانِي

وظيفة القصر والحصر والاختصاص

بعد أن عرضنا وظيفة التوكيد، وأوردنا الأمثلة الدالة عليها وما تَضَمَّنَتْهَا من أسرار ونكت بيانية، نعرض هنا الوظيفة المعنوية الثانية لضمير الفصل، وهي القصر والحصر والاختصاص، وتلك مصطلحات متقاربة بل مترادفة عند بعض أهل العلم^(١).

وإذا كان بعض أهل العلم يرى التفريق بين تلك المصطلحات كتقي الدين السبكي (ت ٧٥٥هـ) الذي ألف رسالة أسماها: «الاقتناص»، في الفرق بين الحصر والاختصاص» فإنَّ العرف البلاغي ساوى بين هذه الاصطلاحات^(٢).

(١) انظر: الإقنآن (٢/٧٩٦).

(٢) ضَمَّنَ بهاء الدين السبكي رسالة والده في كتابه «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح» (١/٤٧٨ - ٤٨٣)، كما أنَّ السيوطي ذكرها في مقدمة الإقنآن ضمن موارده في الإعجاز وفنون البلاغة.

انظر: الإقنآن (١/٢٢).

والمقصود بالقصر والحصر والاختصاص هنا: هو قصر المسند على المسند إليه باعتبار أن ضمير الفصل من أساليب القصر التي أقرها البلاغيون^(١).

كما أن القصر في حقيقته تأكيدٌ فوق تأكيدٍ؛ بمعنى أن المتكلم يضغط جملتين في جملة واحدة.

ومن أمثلة هذه الوظيفة:

أ - قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّكَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾

[البقرة: ١٢٠].

فضمير الغيبة في الآية ضمير فصل، والتعريف في ﴿الهُدَى﴾ تعريف الجنس الدال على الاستغراق، فثمة أسلوبان من أساليب الحصر هما: ضمير الفصل وتعريف الجزأين، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به^(٢).

وإفادة الخبر المعرف بالألف واللام معنى القصر أشار إليها الجرجاني بقوله: «واعلم أنك تجد «الألف واللام» في الخبر على معنى الجنس، ثم ترى له في ذلك وجوهاً: أحدها: أن تقصر جنس المعنى على المُخْبِر عنه لقصدك

(١) ينظر: دلائل الإعجاز (ص ١٧٩)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٦)،
وعروس الأفراح (١/٣٣٢ - ٣٣٣)، والإنقان (٢/٨٠٠).

(٢) انظر: روح المعاني (١/٣٧٢)، والتحرير والتنوير (١/٦٩٤).

المبالغة، وذلك قولك: «زيد هو الجواد» و«عمرو هو الشجاع»، تريد أنه الكامل، إلا أنك تُخرجُ الكلام في صورة تُوهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه؛ وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال...»^(١).

ب - ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْؤٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

نجد أن القرآن الكريم قد استخدم القصر بضمير الفصل في مشهد الآخرة مع وجود مؤكِّدات أخرى: الجملة الاسمية، و«إنَّ»، ولام الابتداء؛ وذلك لتقرير أهمية حياة الآخرة للإنسان، وأنها هي الحياة الحقيقية التي تفيض حيوية، وانظر إلى اختيار لفظ ﴿الْحَيَوانُ﴾ في سياق المقطع، فهو يعطي صورة أعمق وأكمل عن معنى حياة الآخرة، فقد جاء على وزن «فَعْلان» الذي يفيد الاضطراب والحركة كما هو مقرر في قواعد علم الصرف^(٢)، كل ذلك ليتناسب مع وصف مشهد الآخرة.

(١) دلائل الإعجاز (ص ١٧٩).

(٢) ينظر: فتح الأقفال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال لبحرق (ص ١٨٠).

يقول ابن عاشور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشيراً إلى البلاغة الكامنة في اختيار لفظ ﴿الْحَيَوَانُ﴾: «... الحياة الآخرة هي الحياة الحق، صيغ لها وزن الفعلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرك؛ توضيحاً لمعنى كمال الحياة بقدر المتعارف، فإنَّ التحرك والاضطراب أمانة على قوة الحيوية في الشيء مثل الغليان واللهبان»^(١).

ج - ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

جاءت هذه الآية في سياق الرد على المشركين الذين أنكروا البعث والحشر وكانوا يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فجعل من بين المؤكِّدات في الخبر ضمير الفصل لإفادة الحصر، جاء في «روح المعاني»: «وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية... وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار...»^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣١/٢١).

(٢) روح المعاني (٢١٨/٢٢).

د - ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ

﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥ - ١٦٦].

فضمير الفصل «نحن» في الآيتين يفيد الحصر، ومعناه: أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم.

يقول أبو السعود (ت ٩٥١هـ) في تعليقه على الآية:

«وتحلية كلامهم بفتون التأكيد - وهي القصر وضمير الفصل ولام الابتداء وحرف «إن» - لإبراز أن صدوره عنهم بكامل الزينة والنشاط، هذا هو الذي تقتضيه جزالة التنزيل»^(١).

هـ - ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

يلاحظ أن الله ﷻ نفى الولاية عن الظالمين بقوله قبل هذه الآية: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]، ثم صَدَّرَ عند ذكر اتخاذ هؤلاء أولياء من دون الله بـ (أم) المعادلة التي تفيد معنى الإضراب ها هنا؛ أي: بل اتخذوا من دونه أولياء، فانتقل بعد ذلك إلى تقرير حقيقة أن صفة الولاية قد قُصِرَتْ على الله تعالى لا تتعداه

(١) تفسير أبي السعود (٧/٢١٠).

إلى غيره من المعبودات التي اتخذوها إلهاً من دونه.

و- ومن تلك الأمثلة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

فقد ذكر في الآية عدم المساواة بين الفريقين بأسلوب النفي، ثم أتى بضمير الفصل الذي يفيد قصر صفة الفوز على أصحاب الجنة، والآية من الآيات التي استدل بها البلاغيون على أن ضمير الفصل يفيد القصر والاختصاص^(١).

ز - ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣].

فأكد الضمير المتصل بضمير الفصل ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ثم أكد التنزيل بالمصدر المؤكّد ﴿تَنْزِيلًا﴾ فأكد المنزّل والتنزيل، وقد ذكّرت الآية المنزّل وهو الله تعالى، والمنزّل عليه وهو النبي ﷺ، والمنزّل وهو القرآن.

والتعبير بفعل ﴿نَزَّلْنَا﴾ المضعّف للإشارة إلى التنزيل المفرّق التدريجي، ومن هنا فرّق أهل العلم في التعبير القرآني بين لفظ «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ»، فالإنزال يُستعمل غالباً في

(١) انظر: عروس الأفراح (١/٣٣٣).

الدفعة الواحدة، والتنزيل يستعمل في التدرج.

يقول الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]: «فإن قلت: لم قيل: نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل؟ قلت: لأن القرآن نزل مُنَجَّمًا، ونزل الكتابان جملة»^(١).

ح - ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

تضمنت الجملة هنا أربعة مؤكّدات:

○ «إِنَّ».

○ ضمير الفصل المفيد للقصر.

○ الجملة الاسمية التي لا يقيدتها زمان، وإنما هي

دالة على الثبوت والدوام.

○ تعريف الخبر.

وكل تلك المؤكّدات من أجل الدفاع عن

رسول الله ﷺ وتطبيب قلبه الشريف من كلام صادرٍ من مُعَيَّنٍ.

(١) الكشاف (١/٤١١)، وانظر: ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي

(١/٢٨٦)، والتحرير والتنوير (٢٩/٤٠٢ - ٤٠٣).

يقول ابن عاشور: «فحصل القصر في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ لأنَّ ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتَر على الموصوف، وهو شائئ النبي ﷺ، قصر المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب؛ أي: هو الأبتَر لا أنت»^(١).

ومعنى الشائئ: المُبْغِضُ؛ مِنَ الشَّنَانِ، وهو العداوة والبغضاء، والأبتَر من البتْر، وهو القطع، فالأبتَر: المنقطع عن كل خير، ويقال لمن لا نسل له: أبتَر؛ لأنَّه انقطع نسله^(٢).

ومما ذكره المفسرون في المَعْنَى بهذه الآية وفي سبب نزولها: أَنَّ العاص بن وائل السَّهْمِيَّ كان إذا ذُكر رسول الله ﷺ قال: دَعُوهُ؛ فَإِنَّمَا هو رجل أبتَر لا عقب له، لو هلك انقطع ذِكْرُهُ واسترَحْتُم منه، فنزلت الآية^(٣).

واختيار صيغة ﴿الْأَبْتَرُ﴾ من أجل تقوية الحصر، فهو لم يقل: «إِنَّ شَانِئَكَ أبتَر» أو «إِنَّ شَانِئَكَ هو أبتَر» فيجعله من

(١) التحرير والتنوير (٥٧٦/٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٩٧/٢٤)، والعمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي (ص ٣٥٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦٩٧/٢٤ - ٦٩٨)، وأسباب النزول للواحي (ص ٤٦٦).

جملة البتر؛ بل قال ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].
ولم يقل كذلك: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْمَبْتُور»؛ لأنَّ
صيغته اسم مفعول، وهو يدل على الحدوث والتجدد، فقد
يزول عنه هذا البتر، وفي ذلك يقول الألوسي: «وفي
التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام
ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة»^(١).

ومن الأمثلة القرآنية التي اشتملت على هذه الوظيفة
أيضاً قوله تعالى:

- ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
[البقرة: ٥].

- ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الْأَرْقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].

- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾
[التوبة: ١٠٤].

- ﴿نَحْنُ عِبَادِي آتِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

- ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

- ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤].
- ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ آرَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].
- ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].
- ﴿أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَِّّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].
- ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن نشير إلى اجتماع وظيفتين أو أكثر في مثال واحد أحياناً، وهو مظهر من مظاهر الإعجاز البياني حيث لا تتزاحم أسراره، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] نلاحظ أن ضمير الفصل قد دخلت عليه لام الابتداء لزيادة التقوية التي أفادها ضمير الفصل، كما أنه يفيد القصر؛ أي: هذا القصص لا ما تقصه كتب النصارى وعقائدهم^(١).

يقول العلوي في معرض تعداده فوائد ضمير الفصل:
 «... وكما هي مفيدة للتأكيد كما ترى؛ ففيها دلالة على

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤٧/٢)، والتحرير والتنوير (٢٦٧/٣).

الاختصاص؛ لأنه إذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فإنما جاء بالضمير ليدلّ على أنّهم لكفرهم اختصوا بمزيد الظلم الفاحش، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] فيه دلالة على مزيد اختصاصهم بالإيمان واستحقاقهم لصفته من بين سائر الخلق، فيؤخذ الاختصاص والتأكيد من هذا الضمير^(١).



(١) الطراز للعلوي (٢/١٤٤ - ١٤٥).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

وظيفة التمييز بين الخبر والتابع

لِلْبَحْثِ الثَّالِثِ

وظيفة التمييز بين الخبر والتابع

مهمة هذه الوظيفة لفظية، وهي التمييز بين الخبر والتابع، والإعلام من أول وهلة بكون الخبر خبراً لا تابعاً؛ ولهذا سمّاه البصريون «فَصْلاً» كما سبق.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ جمهور النحاة ضيّقوا دائرة وظائف هذا الضمير في الجملة العربية، واقتصروا على هذه الوظيفة اللفظية فحسب، انظر إلى كلام الرضي الأسترابادي حينما يقول: «الغرض من الفصل في الأصل فصلُ الخبر عن النعت»^(١).

والتحقيق: أنّ وظائفه الدلالية وعلى رأسها التوكيد أقوى وأكثر من الوظائف التركيبية اللفظية، وسبق أن أوردنا في بداية هذا الفصل نقد ابن هشام على النحويين في قصور نظرتهم لوظائف ضمير الفصل، وثنائه على

(١) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (١/ ١٧٠ القسم الثاني).

الزمخشري لاتساع نظرتة واكتمال الرؤية عنده.

وإذا أردنا أن نضرب مثالا لهذه الوظيفة؛ فلنتأمل قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فلو جردت هذه الآية من ضمير الفصل لَتُوهِمَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الْغَنِيُّ﴾ ما هو إلا صفة للفظ الجلالة، وَأَنَّ الْخَبْرَ لَمْ يَأْتْ بَعْدَ، فضمير الفصل هو الذي يرفع مثل هذا الوهم واللبس ويشعر بأنه الخبر.

وعندما لا يكون هناك وهم ولبس نجد النص القرآني خالياً من ضمير الفصل؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَجْعَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، فقد جاءت جملة مستقلة بعد الجملة الاسمية.

ولولا ضيق المقام لعرضنا مزيداً من الأمثلة لهذه الوظيفة اللفظية، ولكننا نلفت النظر إلى أن عشرات الأمثلة التي أوردناها لوظيفة التوكيد والتقوية أو وظيفة القصر والحصر تصلح كذلك أن تكون أمثلة لوظيفة التمييز بين الخبر والتابع.

تلك أهم وظائف ضمير الفصل في القرآن الكريم، وعليها مدار الحديث عند المفسرين والبلاغيين والنحويين.



الخاتمة

بعد هذا التطواف في رحاب ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم؛ رأيت أن أبرز هنا ما يمكن استخلاصه من نتائج ذات أهمية، وقد تمثلت بما هو آت:

أولاً: أبانت الدراسة أن لهذا المصطلح تسميات عدة عند أهل العلم:

- ضمير الفصل عند البصريين.
- عماداً أو دعامة عند الكوفيين.
- ومنها: الفاصلة، والصلة والزائد، والرابطة، وحرف الفصل.

ثانياً: مصطلح ضمير الفصل - وهو مصطلح بصري - أدق وأنسب من المصطلحات الأخرى؛ إذ هو السائد المشهور، كما أنه يعطي المعنى الدقيق للكلمة.

ثالثاً: التعريف الدقيق لمصطلح «ضمير الفصل» هو:

صيغة ضمير منفصل مرفوع يتوسط بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر.

رابعاً: استعرضت الدراسة خلاف أهل العلم حول اسمية ضمير الفصل أو حرفيته، وتبين أن القول الراجح هو: اعتبار ضمير الفصل حرفاً لا يعمل شيئاً، ولا يؤثر في غيره تأثيراً إعرابياً، ولكن له وظائف نحوية وبلاغية اقتضت وجوده.

خامساً: أوردت الدراسة شروط ضمير الفصل مقرونة بأمثلتها القرآنية، وكانت موزعةً كالآتي:

- شرطان فيما قبل ضمير الفصل.
- شرطان فيما بعده.
- شرطان في ذاته.

سادساً: ابتعد اللغويون - بسبب اختلافهم حول تسمية ضمير الفصل، وإعرابه، والتوسع في ذكر شروطه - عن التفكير في وظائف هذا الضمير والفوائد التي تعود على الجملة من وجوده.

سابعاً: لضمير الفصل وظائف وأغراض يحققها عند الإتيان به، أبرزها: التوكيد والتقوية، والقصر والحصر والاختصاص، والتمييز بين الخبر والتابع.

ثامناً: أظهرت الدراسة مدى أهمية التوكيد بضمير الفصل، وما تضمنه من أسرار بلاغية، ولطائف دقيقة، وذلك قليل من كثير، وقطرة من بحر مما في كتاب الله من أسرار عظيمة لا يمكن لأحد إحاطتها.

تاسعاً: اتضح لنا في هذه الدراسة دور ضمير الفصل في السياق القرآني وأثره في إبراز المعاني القرآنية، ولا سيما في المتشابه اللفظي من الآيات القرآنية.

عاشراً: تجلّى في البحث كذلك أثر السياق في النظم القرآني: سباقه ولحاقه، فهو يرسم صورة واضحة لكيفية تأليف الكلام، وانتقاء ما يلائم المعنى من ألفاظ.

الحادي عشر: آيات القرآن الكريم تقع فيها كل لفظة في موقعها المناسب من التركيب، ولا يمكن تغييرها، وكلُّ حرفٍ معجزٌ في موضعه الذي لا يغني عنه غيره، وإلا اختلَّ المعنى، وفقد السياق مراده، وذلك أبرز وجه من وجوه إعجازه البلاغي، ورحم الله مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ)؛ فمن نفائس كلامه قوله: «وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها... فترى اللفظ قاراً في موضعه؛ لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع

في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه...»^(١).

الثاني عشر: تبين من خلال هذه الدراسة أن أشهر من تناول بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم هم مؤلفو المتشابه اللفظي في القرآن؛ كالخطيب الإسكافي، وابن الزبير الغرناطي، وكذلك ابن عاشور في تفسيره، ففيه كنوز بلاغية مدفونة قلما توجد في غيره من التفاسير.

الثالث عشر: أبرزت الدراسة أن لآيات المتشابه اللفظي أسراراً بديعة، ليس في بلاغة التوكيد بضمير الفصل فحسب، بل في اختلافها في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والجمع والإفراد، إلى غير ذلك من وجوه النظم، كل هذه الأمور مجالات بحاجة إلى مزيد من الدراسة، وما زالت المصنفات والدراسات التي تناولت تلك المجالات قليلة محدودة^(٢).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى الرافعي (ص ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) للدكتور محمد بن علي الصامل جهود مشكورة في العناية ببلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، فقد أورد عشرة مواضع من أول =

الرابع عشر: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم مَعِينٌ لا يَنْضُبُ، وِبَحْرٍ لا يُدْرِكُ غَوْرَهُ، يَرْتَوِي مِنْهُ كُلُّ مَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى هِدَايَاتِ الْقُرْآنِ وَأَوْجُهُ إِعْجَازَهُ.

هَذَا وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

- ١ - الإنقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، نشر دار ابن كثير دمشق، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢ - ارتشاف الضَّرَب، من لسان العرب، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: د. مصطفى النماس، مطبعة المدني، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- ٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ٥ - إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: د. زهير زاهد، طبعة عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، ط ٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٦ - الإكسير في علم التفسير، لسليمان بن عبد القوي الصرصري الطوفي (ت ٧١٦هـ)، تحقيق: د. عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٧ - الأمالي النحوية، لأبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق: هادي حسن حمودي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

- ٨ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الشهير بـ«ابن الأنباري» (ت ٥٧٧هـ)، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٩ - الإيضاح في شرح المفصل، لأبي عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق: د. موسى العليلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢م.
- ١٠ - الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٩م.
- ١١ - البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، نشر دار الفكر، بيروت.
- ١٢ - بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر الزرعي الشهير بابن القيم (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: هشام عطا، وعادل العدوي، وأشرف أحمد، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ١٣ - البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، حققه: د. يوسف المرعشلي وزميلاه، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٤ - البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ١٥ - التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، نشر الدار التونسية للنشر.
- ١٦ - التطور النحوي للغة العربية، لبرجستراسر، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٢م.

- ١٧ - التعبير القرآني، للدكتور فاضل صالح السامرائي، نشر دار عمار، الأردن، ط٦، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٨ - تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، لمحمد بدر الدين بن أبي بكر الدماميني (ت٨٢٧هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن المفدى، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٩ - تلخيص المفتاح، لمحمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- ٢٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر، نشر دار هجر للطباعة والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٢١ - الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالاشتراك مع آخرين، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ٢٢ - الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٣ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضية، مطبعة حسان، القاهرة.
- ٢٤ - درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني الشهير بالخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ٢٥ - دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- ٢٦ - دلالات التراكيب، للدكتور محمد محمد أبو موسى، دار المعلم، ١٣٩٩هـ.
- ٢٧ - رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ٢٨ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٩ - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي نور الدين الأشموني (ت ٩٢٩هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد السيد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دون ذكر الطبعة والتاريخ.
- ٣٠ - شرح ألفية ابن معطي، لعبد العزيز بن جمعة الموصلية المعروف بابن القواس، تحقيق: د. علي الشوملي، نشر مكتبة الخريجي، الرياض، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٣١ - شرح التسهيل، لمحمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٣٢ - شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلي (ت ٦٦٩هـ)، تحقيق: صاحب أبو جناح، مطبعة بغداد، ١٩٨٢م.
- ٣٣ - شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، لمحمد بن الحسن الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق: د. حسن الحفظي، ود. يحيى بشير مصري، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٣٤ - شرح الكافية الشافية، لمحمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد المنعم هريدي، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٢هـ.

- ٣٥ - شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت١٦٤٣هـ)، نشر عالم الكتب، بيروت.
- ٣٦ - الضمائر المحتملة في القرآن الكريم، للدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.
- ٣٧ - طبقات القراء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: د. أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٨هـ.
- ٣٨ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٣٩ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧٣هـ)، تحقيق: د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت (ضمن سلسلة شروح التلخيص)، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٤٠ - على طريق التفسير البياني، للدكتور فاضل صالح السامرائي، منشورات جامعة الشارقة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٤١ - فتح الأقفال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال، لجمال الدين محمد بن عمر المعروف ببهراق (ت٩٣٠هـ)، تحقيق: د. مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٤٢ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، للقاضي زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- ٤٣ - الفهرست، لمحمد بن إسحاق النديم (ت٣٨٥هـ)، تحقيق: رضا تجدد، مطبعة طهران، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

- ٤٤ - فهرست مصنفات القرآن الكريم، إصدار مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٤هـ.
- ٤٥ - القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي (ت ٨١٦هـ)، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- ٤٦ - الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الشهير بسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض.
- ٤٧ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٨ - الكلبيات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، حققه: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٤٩ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مطابع الفرزدق، الرياض، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٥٠ - مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، تعليق: د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر.
- ٥١ - مختصر في شواذ القراءات، لحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، عني بنشره برجستراسر، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٤م.
- ٥٢ - المساعد على تسهيل الفوائد، لبهاء الدين بن عقيل (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق: د. محمد كامل بركات، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.

- ٥٣ - مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: ياسين محمد السواس، مطبعة دمشق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٥٤ - مصطلحات النحو الكوفي دراستها وتحديد مدلولاتها، للدكتور عبد الله بن حمد الخثران، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٥٥ - معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت٢١٥هـ)، تحقيق: د. فائز فارس، المطبعة العصرية بالكويت، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٥٦ - معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.
- ٥٧ - معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- ٥٨ - معجزة القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٨هـ)، دار الكتاب العالمي بمصر، ومكتبة تهامة بجدة، ط٤، ١٤٠٧هـ.
- ٥٩ - معجم البلاغة العربية، للدكتور بدوي طبانة، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٦٠ - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- ٦١ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لأبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ٦٢ - مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٦٣ - مفاتيح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده (ت ٩٦٨هـ)، تحقيق: كامل البكري وعبد الوهاب أبي النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- ٦٤ - المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- ٦٥ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق: د. سعيد الفلاح، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٦٦ - النحو الوافي، لعباس حسن، نشر دار المعارف، القاهرة.
- ٦٧ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.



فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	الملخص
٩	المقدمة
١٠	أهمية الموضوع وأسباب اختياره
١٤	أهداف الدراسة
١٥	منهج الدراسة
١٦	خطة الدراسة
١٩	الدراسات السابقة
٢٣	الفصل الأول: مقدمات موجزة لأبرز مسائل ضمير الفصل
٢٥	المبحث الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لضمير الفصل
٢٩	المبحث الثاني: تسميات ضمير الفصل عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين
٣٩	المبحث الثالث: ضمير الفصل بين الاسمية والحرف
٤٣	المبحث الرابع: ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه
٤٩	المبحث الخامس: شروط ضمير الفصل
٥٧	الفصل الثاني: وظائف ضمير الفصل في القرآن الكريم

٦١	المبحث الأول: وظيفة التوكيد والتقوية
٩٧	المبحث الثاني: وظيفة القصر والحصر والاختصاص
١٠٩	المبحث الثالث: وظيفة التمييز بين الخبر والتابع
١١٢	الخاتمة
١١٧	فهرس المصادر والمراجع
١٢٥	فهرس الموضوعات